التَّاجُ المَفْقُودُ

أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي



دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر
شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٥١٢٠٦٢١ / ٠٠٢٠٢



دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠٥٤١١٩١٠-٠٢-٥٢٢٢٠٠
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

دار القمة

Dar AL-Eman
Printing, Publishing&Distribution
0 001986 501444

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم



طبعة ٢٠١٠

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

التاج المفقود

تأليف
أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥١٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهده اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأَشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

أما بعد.. فإن السمت الحسن خلق عظيم من أخلاق الأنبياء يكسو صاحبه ثوب الهيبة والوقار ويحليه بحلية الرزانة والسكون.

وإن الناظر إلى سير السلف يرى أن حرصهم على تعلم السمت الحسن أشد من حرصهم على العلم الذي هو زكاء العقول وصِقالها.

قال عبد الرحمن بن مهدي - رحمه الله -: «كُنَّا نأتي الرَّجُلَ ما نريدُ عِلمَهُ إلاَّ أن نتعلم من هديه وَسَمْتِه وَدَلِّه»[1].

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٤٩).



وقال أيضًا: «كان عليُّ بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يُريدون أن يسمعوا شيئًا إلا أن ينظروا إلى هديه وسَمْته»(١).

وقال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ: «كان يَحْضُرُ مجلس أحمد زُهَاءُ خَمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون والباقي يتعلمون منه حُسن الأدب وحُسن السَّمْت»(٢).

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «قد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سَمْته وهَدْيه، لا لاقتباس علمه، وذلك أنَّ ثمرة علمه هديه وسَمْته»(٣).

ولا يقتصر الأمر عند هذا بل كان السلف لا يطلبون العلم إلا عمَّن اشتهر بالهدى وحسن السمت.

(١) المرجع السابق (٢/١٤٩). (٢) المرجع السابق (٢/١٢).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٢١٦).

قال إبراهيم النخعي ـ رحمه الله ـ: «كانوا إذا أتوا الرَّجُل ليأخذوا عنهُ نظروا إلى صلاتِه وإلى سَمْتِه وإلى هيئَتِه ثُمَّ يأخذون عنه»(١).

وكانوا إذا مدحوا الرجل فلا يمدحونه بشيء أعظم من الهدى وحسن السمت، قال أبو عاصم النبيلُ ـ رحمه الله ـ: «مات حَمَّادٌ يوم مات ولا أعْلَمُ له في الإسلام نظيرًا في هَيْئَتِه ودله وسَمْتِه»(٢).

وقال الحسن بن الربيع ـ رحمه الله ـ: «ما شبَّهتُ أحمدَ بن حنبل إلا بابن المبارك في سَمْتِه وهديه»(٣).

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «لقيتُ عبد الوهاب الأنماطيَّ فكان على قانون السَّلفِ لم يُسْمَعْ في مجلسه غيبةٌ، ولا كان يطلبُ أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا

(١) «الآداب الشرعية (٢/١٤٩)، وانظر «سنن الدارمي» (رقم الحديث ٤٣٤/٤٣٥/٤٣٦)، وانظر «فائدة مهمة بعدها لأبي العالية ـ رحمه الله ـ».
(٢) «السير» (٧/٤٥٩).
(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي (ص٦٦).

قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بُكاؤه في قلبي، ويبني قواعد الأدب في نفسي، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النَّقْلِ»[١].

وعليه لا يَخْفَيَنَّ عليك أن السمت الحسن هو التاج الذي افتقدناه، فمتى سَمَتْ نفسُك إليه فلابد لها من موارد التعب والعناء، لكن التعب في سبيل التحلي بالتاج يشبه الدواء المر.

وها أنا أضع بين يديك غرسًا فلا تضنن في تعاهد ما غرستُ واستنمائه، ولا يغيبن عنك أن السمت والعلم زَوْجٌ لا يكمل السمت إلا بالعلم ولا يكمل العلم إلا بالسمت.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم ويغفر لي ولوالدي يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

(١) «صيد الخاطر» (ص١٤٣).

تعريف حسن السمت

حُسْنُ: هو مصدر حَسُنَ الشيءُ إذا كان مبهجًا مرغوبًا فيه[١].

والسمت الطريق وحُسْنُ النمو في مذهب الدين، والفعل منه سَمَتَ يَسْمَتُ، يُقال إنه لَحَسَنُ السَّمْتِ: أي حسن القصدِ والمذهبِ في دينه ودُنياه»[٢].

وقال المباركفوري: «حسن سمت»، أي: خلق وسيرة وطريقة.

وقال الطيبي: هو التزيي بزي الصالحين، وقال ميرك: السمت بمعنى الطريق أي المقصد، وقيل: المراد هيئة أهل الخير، والأحسن ما قاله ابن حجر: «أنه تحري طرق

(١) «مفردات الراغب» (ص١١٨).

(٢) «لسان العرب مادة سمت» (ص٢٠٨٧).

الخير والتزيي بزي الصالحين مع التنزه عن المعائب الظاهرة والباطنة»[1].

وصفوة المقال أن حُسْنَ السمت هو حُسْنُ المظهر الخارجي للإنسان من طريقة الحديث والصَّمْتِ، والحركة والسُّكون، والدخول والخروج، والسيرة العملية في الناس بحيث يستطيع من يراه أو يسمعه أن ينسبَهُ لأهل الخير والصلاح والدِّيانة والفلاح[2].



(١) «عون المعبود» (٨/ ٩٩).

(٢) انظر «نضرة النعيم» لمجموعة باحثين (٥/ ١٥٨٨).

أهمية حسن السَّمْت

١ ـ أنه جزءٌ من النبوة:

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الهدي الصالح والسَّمْتَ الصالحَ، والاقتصاد[1] جزءٌ من خمسة وعشرين جزءً من النبوة»[2].

وعن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّمْتُ الحَسَنُ، والتُّؤَدَةُ[3] والاقتصادُ جُزء مِنْ أربعةٍ وعشرين جُزءً من النُّبُوَّةِ»[4].

(١) الاقتصاد: أي التوسط في الأحوال والتحرز عن طرفي الإفراط والتفريط.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢٩٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٧)، وأبو داود (٤٧٧٦)، وقال الألباني في «الروض النضير» (٣٨٤): حسن.

(٣) التُّؤَدَة: هي التأني والتمهل، يقال: اتئد في أمرك «مختار الصحاح» مادة «وأد».

(٤) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٩٥)، وقال الألباني في «الروض النضير» (٣٨٤): حسن.

قال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ: «إن هذه الخلال من شمائل الأنبياء ومن جملة خصالهم، وأنها جزءٌ معلومٌ من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن النبوة تتجزأ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان منه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة، ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هي كرامة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجوز أن يكون أراد بالنبوة ما جاءت به النبوة، ودعت إليه وتخصص هذا العدد مما يستأثر النبي ﷺ بمعرفته»(1).

٢ ـ أنه صفة من صفات الأنبياء:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**أولَ ما اتخذ المنطق من قبل أمِّ إسماعيل.. الحديث**»، إلى أن قال: «**فجاءَ إبراهيمُ بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يُطالعُ تَرِكَتَهُ، فلم يجد إسماعيل فسَأَلَ امرأَتَهُ عَنْهُ، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثمَّ سألها عن عَيْشتِهم وهيئتِهِمْ، فقالت: نَحْنُ بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ**

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٢).

فَشَكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقْرَئِي عليه السلام وقولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فلما جاء إسماعيلُ كأنَّه آنَسَ شيئًا فَقَال: هَلْ جاءَكُمْ مِنْ أحَدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عَنْكَ فأخبرتُهُ، وسألني كيف عَيْشُنَا، فأخبرتُه أنَّا في جَهْدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّر عتبة بابِكَ، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أَنْ أُفارِقَكِ، الحقي بأهلِكِ، فطلَّقها وتزوَّج منْهُم بأُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُم إبراهيمُ ما شاء الله، ثُمَّ أتاهُمْ بعد فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ على امْرَأَتِهِ فسألها عَنْهُ، فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قال: كَيْفَ أَنْتُم؟ وَسَأَلَهَا عن عَيْشِهِمْ وهيئتِهِمْ، فقالت: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وأَثْنَتْ على الله فَقَالَ: ما طَعَامُكُمْ؟ قالت: اللَّحْمُ والماءُ، قال: اللَّهُمَّ بارك لهم في اللَّحْم والماء»، قال النبي ﷺ: «**ولَمْ يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ ولو كان لَهُمْ حَبٌّ لدعا لَهُمْ فيه**»، قال: «**فهما لا يَخْلُو عليهما أحدٌ بغير مكة إلاَّ لم يُوَافِقاهُ، قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقْرَئِي عليه السلام ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فلمَّا جاء إسماعيلُ، قال: هل أتاكم من أحَدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ وأثنت عليه**

فسألني عنك فأخبرتُهُ أنا بخَيْرٍ، قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمُرُك أن تُثبِّتَ عَتَبَةَ بابِكَ، قال: ذَاكَ أبي وأنت العَتَبَةُ أمرني أن أُمْسِكَك.. الحديث»[1].

فالشاهد هو قول امرأة إسماعيل: «أتانا شيخ حَسَنُ الهَيئَةِ».

٣ ـ أن النبي ﷺ أعظم من تحلى بالسمت الحسن:

عن حبيش بن خالدٍ[2] ﵁، أنَّ أبا معبد طلب من أم معبد أن تصف له رسول الله ﷺ، فكان مما وصفته به: «إنْ صَمَتَ فَعَلَيْه الوقارُ، وإنْ تكلَّمَ سَمَا وعلاهُ البهاءُ أجملُ الناس وأبهاهُ من بعيدٍ، وأحلاهُ وأحسنُهُ من قريبٍ، حُلْوُ المنطق، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولاهَذْرٌ[3] كأن منطقه خَرَزاتُ نَظْمٍ ينحدِرْنَ»[4].

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤).
(٢) هو أخو أم معبد واسمها عاتكة بنت خالد.
(٣) **لا نزر ولا هزر:** النزر القليل أي ليس بقليل فيدل على عي، ولا كثير فاسد والهزر الكلام الكثير غير المفيد، انظر «النهاية» (٥/ ٤٠).
(٤) **حسن:** أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٩-١١)، وابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٥٧). وقال محققا زاد المعاد عبد القادر وشعيب الأرناؤوطان في حاشية «زاد المعاد»: حديث حسن.

وقد تعلم الصحابة من النبي ﷺ كل شيء حتى لباسَهُ ونَعْلَيْه، قال حذيفة بن اليمان ﵁: «إنَّ أشْبَهَ الناس دلاً[1] وسمتًا[2] وهديًا[3] برسول الله ﷺ لابن أُمِّ عَبْدٍ[4] من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندري ما يصنعُ في أهله إذا خلا»[5].

وكانت فاطمة ﵂ من أشبه الناس بأبيها؛ فعن عائشة ﵂ قالت: ما رأيتُ أحدًا أشبه سمتًا ودلاً وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة ﵂»[6].

(١) **الدلّ:** الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة.
(٢) **السمت:** حسن المنظر في أمر الدين.
(٣) **الهدي:** السيرة والطريقة.
(٤) **ابن أم عبد:** هو عبد الله بن مسعود ﵁.
(٥) رواه البخاري (٦٠٩٧).
(٦) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٤١٤٦) واللفظ له، وأبو داود (٥٢١٧)، والنسائي (٣٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٧٢)، والبيهقي (٧/ ١٠١)، وقال الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٠٣٩): صحيح.

وما أجمل ما قاله ابـن حبان ـ رحمه الله ـ: «الواجب على العاقل أن يكـون حسن السَّمْتِ طويلَ الصَّـمتِ؛ فإن ذلك من أخـلاق الأنبيـاء، كمـا أن سـوء السـمت وترك الصَّمْتِ من سِيَمِ الأشقياء»[1].

٤ ـ أن حسن السمت والفقه في الدين لا يجتمعان في منافق:

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَصْلَتانِ لا يجتمعان في منافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، ولا فِقهٌ في الدِّينِ»[2].

قال المبـاركفـوري ـ رحمـه الله ـ: قوله «خصـلتان لا تجتمعان في منافـق» بأن تكون فيه واحدة دون الأخرى، أو لا يكونا فـيه بأن لا توجـد واحدة منهـما فـيه، وإنما عـبر بالاجتماع تحريضًا للمؤمنين على جمعهما، وزجرًا لهم عن الاتصاف بأحدهما»[3].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٥).
(٢) صحيح: أخرجه التـرمذي (٢٦٨٤)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢٧٨): صحيح.
(٣) «عون المعبود» (٧/ ٩٩).

المظهر والهيئة

١ ـ الاعتناء بالمظهر ولباس البياض:

من حسن السـمت الاعتناء بالمظهر والهيـئة، وهذا هو مربط الفرس وبيت القصيـد؛ فإن حسن السمت متى أطلق فالمراد منـه حسن المظهر الخـارجي للإنسان؛ فـعلى المرء أن تكون له عناية بمظهـره؛ فإن ذلك من أسبـاب ميل القلوب إليـه وحب الناس له، وقد قـيل: «الحليـة في الظاهر تدلُّ على مـيل البـاطن»، ومما يدل على أن حُسْنُ المظهـر من أسبـاب ميل القلوب مـا رواه عمر بـن الخطاب ﵁ قال: «بينمـا نحنُ عند رسـول الله ﷺ ذاتَ يوم إذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بيـاض الثِّيـابِ، شديدُ سوادِ الشَّـعْرِ، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جلس إلى النبي ﷺ . . .»[1].

---

(١) رواه مسلم في «الإيمان» (٨).

فالحكمة من مجيء جبريل عليه السلام بهذه الهيئة الحسنة من شدَّة بياض الثياب، وشدة سواد الشعر، ليعظُم اتجاهُهُمْ إليه، وإجلالُهُمْ له، وإصغاؤهم لما يقول.

فعلينا أن نعتني بمظهرنا ونلبس الملابس النظيفة وأحسنها الثياب البيض فإنها من خير الثياب.

فعن سَمُرة عن النبي ﷺ قال: **«الْبسوا من ثيابكم البياضَ فإنها من خير ثيابكم»**[1]، وفي رواية: **«عليكم بالبياض من الثياب، فليلبسها أحياؤكم، وكفنوا فيها موتاكم؛ فإنها من خير ثيابكم»**.

قال في (عون المعبود): **«فإنها من خير ثيابكم»**؛ لدلالته غالبًا على التواضع وعدم الكبر والخيلاء والعجب

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٩٥٩٩)، وأبو داود (٤٠٦١)، والترمذي (٩٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (٤٩١٥).
(٢) «عون المعبود» (١١/ ٧٥).

وسائر الأخلاق الطيبة، وبين في كونها من خير الثياب وجوه أُخر»[2].

وفي (حاشية النسائي): «فإنها أطهر وأطيب؛ أنه يلوح فيها أدنى وسخ فيزال بخلاف سائر الألوان. والله أعلم»[1].

وفي تحفة الأحوذي: **«البسوا البياض»**؛ أي الثياب البيض كما في رواية: **«فإنها أطهر»**، أي لا دنس ولا وسخ فيها، قال الطيبي: لأن البيض أكثر تأثيرًا من الثياب الملونة، فتكون أكثر غسلاً فتكون أطهر أي أحسن طبعًا وشرعًا...»[2].

وقد بوب البخاري في كتاب (اللباس - باب الثياب البيض) عن سعد قال: رأيتُ بشمالِ النبيِّ ﷺ ويمينه رَجُلَيْنِ عليهما ثيابٌ بيضٌ يَوْمَ أُحَدٍ، ما رأيتُهُمَا قَبْلُ ولا بَعْدُ»[3]، يعني جبريل وميكائيل - عليهما السلام -.

(١) «حاشية النسائي» (٨/ ٢٠٥). (٢) «تحفة الأحوذي» (٨/ ٧٦).
(٣) رواه البخاري (٥٨٢٦)، ومسلم (٢٣٠٦) واللفظ له.

ففي هذا الحديث بيان فضيلة الثياب البيض وأنها لباس الملائكة وقد تقدم في حديث جبريل السابق.

وهي ـ أيضًا ـ لباس الأنبياء، وكيف ولباس الملائكة من خير الثياب؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ وعليه ثوبٌ أبيض»[1].

٢ ـ إظهار النعمة:

إظهار النعمةِ هو جزءٌ من التحدث بها فإذا وسع الله على العبد فَلْيُرَ أَثَرُ تلك النعمة في طعامه وشرابه وملبسه ومركبه؛ فعن عَوْف بن مالك رضي الله عنه أنه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ في ثوبٍ دُونٍ[2]، فقال: «ألَكَ مالٌ؟»، قال: نَعَمْ، قال: «مِنْ أيِّ المالِ؟»، قال: قد آتاني اللهُ مِنَ الإبلِ والغَنَمِ والخيلِ والرَّقيقِ، قال: «فإذا آتاك اللهُ مالاً فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ الله عليك وكَرَامَتِهِ»[3].

(١) رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).
(٢) ثوب دون: أي قديم أو بالٍ.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٣٥٧٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1].

وليس من المروءة الرضا بالدون عند حضور النعمة، وقد قيل: «المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة».

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين؛ أحدهما بالمكنة من اليسار والإعسار؛ فإن للموسر في الزي قدرًا وللمعسر دونه، والثاني بالمنزلة والحال؛ فإن لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدرًا وللمنخفض عنه دونه، فإن عدل الموسر إلى زي المعسر كان شحًا وبخلاً، وإن عدل الرفيع إلى زي المنخفض عنه كان مهانةً وذلاً، وإن عدل المعسر إلى زي الموسر كان تبذيرًا وسرفًا، وإن عدل المنخفض إلى زي الرفيع كان جهلاً وتخلفًا»[2].

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٨١٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٧).
(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٤٢٣).

٣ ـ استحباب لبس يوم الجمعة أحسن الثياب:

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين يوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[1].

٤ ـ التزين للوفود والزائرين:

وإذا قدم عليه ضيوف أو أراد سفرًا أو زيارة فعليه أن يلبس أحسن ما يجد من الثياب؛ فعن عمر رضي الله عنه أنه رأى حُلَّةً سِيراءَ عند باب المسجد فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك، قال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة».

ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حُلَلٌ، فأعطى عمر منها حُلَّة، فقال عمر: يا رسول الله كسوتنيها وقد قلتَ في

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٣٥).

حلة عُطارد ما قلتَ، قال رسول الله ﷺ: «إني لم أكسُكها لتلبسها»، فكساها عمر أخًا له بمكة مُشركًا»[1].

فيستفاد من الحديث أن النبي ﷺ أقر عمر على أصل التجمل للوفود إذا قدموا، لكنه لم يرض بتلك الحلة لأنها كانت حريرًا كما ذكر العلماء.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «ووجه الاستدلال به من وجهة تقريره ﷺ لعمر على أصل التجمل للجمعة[2]، وقصر الإنكار على لبس مثل تلك الحلة لكونها كانت حريرًا»[3].

قلتُ: ووجه الاستدلال به هنا استحباب التجمل للوفود وهم الضيوف والزوار فيستحب الخروج إليهم بأجمل الثياب.

(١) رواه البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) قلت وللوفود ـ أيضًا ـ كما دل على ذلك سياق الحديث.

(٣) «الفتح» (٣/ ٢٩).

٥ ـ لباس حملة العلم:

ويستحب لحملة العلم أن يكون لهم لباس يليق بهم تكريمًا للعلم، فقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأخذ الزينة عند كل مسجد، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).

وأخبر رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[١].

وقد قعر قوم من الناس فذهبوا إلى لباس الدون تواضعًا وهذا بعيد.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «التواضع في التقى والدين لا في اللباس».

ومن درر العلامة ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ قوله: «على أهل العلم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إكرامًا للعلم وإجلالاً له».

---

(١) رواه مسلم (٩١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ومن جميل ما قيل من الشعر في اللباس:

حَسِّنْ ثيابَكَ ما استطعتَ فإنها
زَيْنُ الرجال بها تُعَزُّ وتُكْرَمُ

ودع التخشين في الثياب تواضعًا
فالله يعلم ما تُسر وتَكْتمُ

فجميل ثوبك لا يضرك بعدما
تخشى الإله وتتقي ما يَحْرُمُ

ورثاثُ ثوبك لا يزيدك رفعة
عند الإله وأنت عَبْدٌ مُجْرِمُ[١]

٦ ـ التزين عند الخروج من البيت:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديثه الطويل وفيه: «فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه، ثُمَّ انطلق يَمْشي»[٢].

---

(١) «حاشية البيجرمي في فقه الشافعي» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٩)، ومسلم (١٩٧٩) واللفظ له.

فيستفـاد من هذا الحديث أن الرجل يستحب له إذا خرج من بيته أن يرتدي ما يزينه في الملأ من الناس.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وفيه أن الكبير إذا خرج من منزله تجمَّل بثيـابه، ولا يقتـصـر على ما يكون عليـه في خلوته في بيته، وهذا من المروءات والآداب المحبوبة»[1].

٧ ـ عناية السلف بمظهرهم:

للسلف عناية خاصة بمظهرهم كـعنايتهم بمخبرهم؛ فعن عبد الملك الميموني ـ رحـمه الله ـ قال: «ما أعلم أنِّي رأيتُ أحداً أنظف ثوباً، ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه، وشعر رأسه، وشعر بَدَنِه، ولا أنقى ثوباً، وشِدَّةَ بياضٍ من أحمد ابن حنبلٍ»[2].

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٣/ ١٤٧).

(٢) «آداب طلب العلم» لابن رسلان (ص٢٩).

٨ ـ الاعتدال في اللباس:

على المرء أن يسلك سلوك الاعتدال في المَلْبَسِ، والمظهر وترك المغالاة، والترفُّع في الثياب؛ فإن المبالغة في ذلك تُحَوِّل كلَّ صفوٍ إلى كدرٍ، وكل لَذَّةٍ إلى مرارةٍ.

فعن أبي أمامة الحارثي قال: قال رسول الله ﷺ: «البَذَاذَةُ[1] من الإيمان»[2].

والبذاذة هي الملابس التي توسط سعرها، فلا هي بالمكلفة المرهقة، ولا هي بالرخيصة التي تزري من يلبسها عند الناس.

قال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحديث نقلاً عن أبي عبد الله البوشنجي ـ رحمه الله ـ قوله: «وأما البذاذة التي قال رسول الله ﷺ أنها من

(١) البذاذة: التقشف وترك فاخر الثياب.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٤١).

الإيمان فهي رَثَاثَةُ الثياب في الملبس والمفرش، وذلك تواضعًا عن رفيع الثياب، وثمين الملابس والمفرش»[1].

وكما يحسن سلوك الاعتدال في اللباس فإنه يحسن تجنب ما تُزدرى بسببه؛ قال عمر رضي الله عنه: «إياكم لبستين: لبسةً مشهورةً، ولبسةً محقورةً»[2].

وقال بعض الحكماء: «البس من الثياب ما لا يزدريك[3] فيه العُظماءُ ولا يعيبه عليك الحُكماءُ»[4].

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أنَّ المروءة أن يكون الإنسان مُعتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثارٍ ولا اطِّراحٍ؛ فإنَّ مراعاتها، وتَرْكُ تفقدُها مهانةٌ وذُلٌّ، وكثرة مراعاتها، وصرف الهمَّة لها دَنَاءةٌ ونَقْصٌ.

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع» (١/ ١٥٤).
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٥٣).
(٣) يَزْدريك: يعيبك ويَحْقرُكَ.
(٤) «أدَب الدنيا والدين» (ص٣٥٣).

وربما توهَّم من خلا من فضلٍ، وعَرِيَ عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة، والسِّيرة الفاضلة؛ لما يَرَى من تمييزه عن الأكثرين، وخروجِهِ عن جُملةِ العوامِّ المسترذلين، وخَفِي عليه أنه إذا تعدَّى طَوْرَهُ، وتجاوز قَدْرَهُ، كان أقبح لذكره، وأبعثَ على ذمِّه، فكان كما قال المتنبي:

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيمًا[1] حُسْنُ بِزَّتِهِ[2]
وَهَلْ يَرُوقُ دَفِينًا[3] جَوْدَةُ الكَفَنِ[4]



(١) المضيم: المظلوم.
(٢) البزة: اللباس.
(٣) راقه الشيء: أعجبه.
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٥٤).

لبس العمامة

العمامة تاج العرب[1]، تزيدك بهاءً ووقاراً.

وهي ـ أيضًا ـ من هدي النبي ﷺ وقد لبس العمامة والقلنسوة، وهديه أكمل الهدى؛ فعن عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر، وعليه عمامة سوداء، قد أرْخَى طرفيها بين كتفيه»[2].

قال العلامة حسين بن محمد مخلوف ـ رحمه الله ـ: «ولم ينقل إلينا ولا عرف عنه ﷺ؛ أنه جلس بين أصحابه، أو مشى في الطريق، أو خطب، أو استقبل الوفود، أو غزا وهو حاسر الرأس دون عمامة أو قلنسوة، ومن ادعى شيئًا من ذلك؛ فعليه البرهان.

(١) من الأمثال السائرة: العمائم تيجان العرب.

(٢) رواه مسلم (١٣٥٩).

إلى أن قال: وقد استن رسول الله ﷺ ذلك جريًا على عادة أشراف العرب، حيث كانوا لا يجلسون في المجالس، ولا يخطبون في المجامع، ولا يحضرون في المحافل إلا وعلى رؤوسهم العمائم؛ فكانت العمائم عندهم شعار الكرامة والعزة والسيادة والرياسة والمروءة والوقار، ولا زالت هذه العادة بين رؤساء العرب إلى وقتنا هذا، وسرت منهم إلى غيرهم من المسلمين في الممالك الإسلامية؛ إلا من شذ ونأى بجانبه عن تقاليد الإسلام المتوارثة والعادات العربية الصحيحة، أنفة من العرب والعروبة، واستكباراً في الأرض، وإحياء لعصبية جنسية ممقوتة، بل لازلنا نشعر نحن المسلمين في بلادنا من أجل تأصل هذه العادة في نفوسنا بأن من يغشى مجالس العظماء والسادة عاري الرأس، قد أخل بالمروءة وتجرد من الحياء وكان حقيقًا بالعتاب بل بالعقاب.

ومن ذلك يظهر أن لبس العمامة عادة عربية قديمة، وسنة نبوية قديمة، وتقليد إسلامي متوارث، وعنوان على

المروءة والشرف، فإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يحافظ على هذه العادة والسنة في عامة الأحوال، لا جرم يكون طلب المحافظة عليها في الصلاة آكد وألزم؛ لتأكد الأدب فيها مع الله ـ تعالى ـ أكثر من غيرها.

ولاشك أن النبي ﷺ لا يختار لنفسه من الأحوال والأفعال والصفات والهيئات إلا أشرفها وأفضلها وأعزها وأكرمها؛ فلا يعقل بعد أن وصف العمائم بأنها سيما الإسلام، وأنها الفارق بين المسلمين والمشركين، وأنها شعار الملائكة يوم بدر ويوم حنين، وبعد أن عرف عنه لبسها في سلمه وحربه وفي مجلسه وعلى منبره أن يدعها في صلاته، ولو جازت الصلاة بدونها؛ لأن الجواز مرتبة والكمال والتأدب مرتبة أعلى وأعظم وللرسول أرفع المراتب وأجلها.

والآن وقد تنوع غطاء الرأس من عمامة إلى طربوش إلى طاقية ونحوهما كما تنوع في عهده ﷺ من عمامة إلى قلنسوة إليهما معًا، ينبغي أن يعلم أن مناط الأفضلية

تغطية الرأس بأي غطاء متعارف لما في كشفها من سوء الأدب، وإن كانت الصلاة جائزة سواء أكانت الرأس مغطاة أم مكشوفة، فمن صلى مغطى الرأس؛ فقد فعل الأكمل، ومن صلى عاري الرأس، جازت صلاته، ولكن مع القصور من مزية الكمال، والله أعلم» اهـ[١].

وقد نقل الشيخ مشهور بن حسن عن غير واحد من الفقهاء أن المشي أمام الناس مكشوف الرأس من خوارم المروءة، ويتحصل من مجموع كلامهم أن هذا الفعل يسقط المروءة بالشروط التالية:

أولاً ـ أن يكون الشخص غير محرم بنسك (حج أو عمرة)[٢].

ثانيًا ـ أن يكون أمام الناس[٣].

ثالثًا ـ أن يكون بلا عذر من مرض أو عمل يقتضي ذلك.

(١) «الأدلة الشرعية» لمخلوف ـ رحمه الله ـ (ص٣٤ وما بعدها).
(٢) «مغني المحتاج» (٤/ ٤٣١).
(٣) «تحفة الطلاب» (٢/ ٥٠٦)، و«فتح المغيث» (١/ ٢٩١).

رابعًا ـ أن يكون ممن لا يليق بمثله وهذا يختلف بالنسبة للأعمار ومكانة الشخص الاجتماعية وغير ذلك[1].

خامسًا ـ أن يكون في موضع يعد فعله خفة وسوء أدب وقلة حياء[2].

سادسًا ـ أن يكون الفاعل رجلاً، أما المرأة؛ فيحرم عليها كشف رأسها لأنه عورة[3].

وقال المحاميد: «والرأس كما هو معلوم ليس عورة بالنسبة للرجل، وتصح صلاته وهو مكشوف الرأس، فتغطية الرأس وعدمها قضية عرفية، وقد تغير العرف في زماننا حتى أصبح كشف الرأس ليس بمذموم ولا خارم للمروءة!

أما العلماء وكبار السن من أهل البداوي والأرياف؛ فإن غطاء الرأس لازال له مكانته في النفوس هيبة وإجلالاً،

(١) «معالم القربة» (ص٢١٥)، و«بغية الرائد» (ص٤١)، و«روضة الطالبين» (١١/ ٢٣٠٢).
(٢) «فتح القدير» (٧/ ٤١٤)، و«الرسائل الزينية» (ص٢٥٦).
(٣) «المروءة وخوارمها» لمشهور بن حسن (ص١٤٣، ١٤٤).

واعلم ـ يا أخي ـ أن للباس والحشمة أثرًا كبيرًا في احترام الناس لك، وخصوصًا في مكان لا تعرف فيه، ولا يفوتني أن أذكر أن اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ يجعلون لهم شعاراً متميزاً في غطاء الرأس، والأحرى بالمسلمين أن يحرصوا على التميز وعدم التبعية في كل ما فيه إظهار لشعائر الإسلام وإعزاز المسلمين»[1].

وقال مشهور بن حسن: «هدي السلف الصالح الحرص على غطاء الرأس، ولم يثبت عن واحدٍ منهم أنه كان يسير حاسرًا»[2].

قلتُ وإن ثبت فلم يثبت عمن شهد لهم أهل العلم من السلف بالهدى وحسن السمت البته.

(١) «عدالة الشاهد في القضاء الإسلامي» (ص٢٥٢).
(٢) «المروءة وخوارمها» (ص١٤٥).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: «ليس من الهيئة الحسنة في عرف السلف اعتياد حسر الرأس والسير كذلك في الطرقات، والدخول كذلك في أماكن العبادات، بل هذه عادة أجنبية، تسربت إلى كثير من البلاد الإسلامية حينما دخلها الكفار، وجلبوا إليها عاداتهم الفاسدة، فقلدهم المسلمون فيها، فأضاعوا بها وبأمثالها من التقاليد شخصيتهم الإسلامية»[1].



(١) «تمام المنة» (ص١٦٤).

طيب الرائحة

من حسن السمت أن يكون المرء طيب الرائحة بعيداً عن أي رائحة منفرة، ولا يقتصر الأمر على حسن السمت بل أن الطيب غذاء الروح، والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطيب، وهو ينفع الأعضاء الباطنة كالدماغ والقلب، ويسر النفس وهو أصدق شيء للروح وأشده ملاءمة[1].

وكان الطيب من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ وهو الأسوة الحسنة في هديه ودله وسمته وفي شأنه كله، إلا ما جاء الدليل أن ذلك من خصائصه ﷺ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٧/ ٦١)، قال الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤): صحيح.

وحث ﷺ على الطيب سيما يوم الجمعة؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الغُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يَسْتَنَّ[1] وأن يمس طيبًا إن وجد»[2].

وفي صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «غُسل يوم الجمعة على كل محتلم، وسواكٌ، ويمسُّ من الطيبِ ما قَدَرَ عليه»[3].

قوله: «إن وجد»، قال الحافظ متعلق بالطيب أي إن وجد الطيب مسه ويحتمل تعلقه بما قبله - أيضًا - وفي رواية مسلم: «ويمس من الطيب ما يقدر عليه»، وفي رواية: «ولو من طيب المرأة».

قال عياض: «يحتمل قوله: «ما يقدر عليه»، إرادة التأكيد ليفعل ما أمكنه ويحتمل إرادة الكثرة، والأول أظهر

---

(١) يستن: أي يدلك أسنانه بالسواك.

(٢) رواه البخاري (٨٨٠).

(٣) رواه مسلم (٨٤٦).

ويؤيده قوله: «ولو من طيب المرأة»؛ لأنه يكره استعماله للرجل وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه»[1].

فإباحته للرجل لأجل عدم غيره يدل على تأكيد الأمر في ذلك، ويؤخذ من اقتصاره على المس الأخذ بالتخفيف في ذلك، قال الزين بن المنير: «فيه تنبيه على الرفق، وعلى تيسير الأمر في التطيب بأن يكون أقل ما يمكن حتَّى إنه يجزئ مسه من غير تناول قدر ينقصه تحريضًا على امتثال الأمر فيه»[2].

ونهى النبي ﷺ عن رد الطيب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عرض عليه ريحان، فلا يرده؛ فإنه طيب الريح خفيف المحمَل»[3].

---

(١) رواه مسلم (٨٤٦).

(٢) «الفتح» (٣/١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عُرِضَ عليه طيبٌ، فلا يرده؛ فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة»[1].

وكان رسول الله ﷺ لا يرد الطيب؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: «أنه ﷺ كان لا يرد الطيب»[2].

والمسك هو أطيب الطيب وأحب الطيب إلى رسول الله ﷺ؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطيبُ الطيبِ المسكُ»[3].

ويستعمل - أيضًا - مكان الطيب أو معه البخور؛ فعن نافع قال: كان ابن عمر إذا استجمر[4] استجمر بالألوَّة[5]

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٠)، وأبو داود (٤١٧٢)، والنسائي (٨/ ١٨٩)، وقال الألباني في «المشكاة» (٣٠١٦): صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٢).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣١)، وأبو داود (٣١٥٨)، والترمذي (٩٩١)، والنسائي (٤/ ٣٩)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٣٢): صحيح.
(٤) **الاستجمار:** هنا استعمال الطيب والتبخر به.
(٥) **الألوة:** هي العود يتبخر به وتسمى الآن المجمرة أو المبخرة.

غير مُطَرَّاة[1] وبكافور، يَطْرَحُهُ مع الألُوَّةِ، ثم قال: هكذا كان يستجمرُ رسولُ الله ﷺ»[2].

فعلى المرء أن يكون أحرص الناس على الكمال وأبعدهم عن النقص، فقد كان رسول الله ﷺ يكثر من استعمال الطيب على رأسه ولحيته حتَّى احمر شعره؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاءَ، قال ربيعة: فرأيتُ شعرًا من شعر رسول الله ﷺ فإذا هُوَ أحْمَرُ فسألتُ فقيل: مِنَ الطِّيبِ»[3].

ومن كانت له عادة في استعمال الطيب فلاشك أن الناس يحبون مَنْ هذه صفاتُهُ، بل حتى الملائكة تحب الرائحة الطيبة وتنفر من ضدها، والرائحة الزكية تفعل في القلب فعل الكلام في السمع.

(١) **غير مطراة:** أي غير مخلوطة بغيرها من الطيب.
(٢) رواه مسلم (٢٢٥٤).
(٣) رواه البخاري (٣٥٤٧)، ومسلم (٢٣٤٧) عدا قول ربيعة.

لو كنتُ أحملُ جمراً حين زرتكم
لم يُنْكِرِ الكلبُ أني صاحبُ الدَّارِ
لكن أتيتُ وريحُ المسكِ يقدُمني
والعنبرُ الندُّ مشبوبٌ على النَّارِ

وقال النابغة الذبياني مادحًا الغساسنة بطيبة رائحتهم:

رِقَاقُ النِّعَالِ[1] طيّبٌ حُجُزَاتُهم[2]، يُحَيَّونَ بالرَّيْحَانِ[3] يَوْمَ السباسبِ[4]

(١) **رقاق النعال:** نعالهم رقيقة لا يخضنونها، والعبارة كناية عن قلَّة الضرب في الأرض؛ لأنهم ملوك.

(٢) **حجزاتهم:** حجزة الإزار ما يُشَدُّ منه على الوسط، والعبارة كناية عن عفتهم.

(٣) **الريحان:** الطيب المعروف.

(٤) **السباسب:** يوم عيد النصارى، وهو اليوم الذي انتصر فيه الحارثُ الأعرجُ الغساني على المناذرة، وعقب عودة عسكره منتصرين خرجت ابنته حليمة وضمختهم بالطيب.

العلم النافع

ليس في الوجود أشرف من العلم النافع الذي يقربك من خالقك ويعينك على الوصول إلى رضاه، ومنفعته في استعمال حسن السمت عظيمة، بل إن الرجل ليطلب العلم فما يلبث أن يأتيه السمت الحسن يطلبه كما يطلب السيل الحدورة.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه، وهديه ولسانه، وبصره، ويَدَيْهِ»[1].

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «إذا علمت علمًا فَلْيُرَ عليك أثَرُهُ وسَمْتُهُ، وسكينتهُ ووقارُهُ وحِلْمُهُ»، وقال: إنَّ العلماء لم يكونوا يهذِرُونَ الكلامَ هكذا، ومن الناس من يتكلم كلام شَهْرٍ في ساعة واحدةٍ»[2].

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥)، و«شعب الإيمان» (٨/ ٤٢٧).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).

ولو لم يكن من فضل العلم إلا السمت الحسن لكان ذلك سببًا في وجوب طلبه، فكيف وفيه عز الدنيا وشرف الآخرة.

ومن رام معرفة ما للعلم من فضل في السمت الحسن فلينظر إلى سمت العلماء من الصحابة فمن بعدهم.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «كان عمر أشبه الناس بهدي رسول الله ﷺ وأشبه الناس بِعُمَرَ ابْنُهُ عبد الله، وبعبد الله ابْنُهُ سَالِمٌ»[1].

وقال أبو عُبَيْد ـ رحمه الله ـ: «كان أصحاب عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه يرحلون إلى عُمَرَ رضي الله عنه فينظرون إلى سَمْتِه وهَدْيِهِ فيتشَبَّهُونَ به»[2].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «إنَّ أشبه الناس دلاً وسمتًا وهديًا برسول الله ﷺ لابْنُ أُمِّ عَبْدٍ[3] من حين

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥١٠).
(٢) «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦٩٩).
(٣) ابن أم عبد: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندري ما يصنعُ في أهْله إذا خلا»[1].

وقال الحافظ في (الفتح) أخرج أبو عبيد في غريب الحديث: أنَّ أصحاب ابن مسعود كانوا ينظرون إلى سَمْته وهديه ودلِّه فيتشبّهونَ به»[2].

وقال الحسن بن الربيع ـ رحمه الله ـ: «ما شبَّهْتُ أحمد بن حنبلٍ إلاَّ بابن المبارك في سَمْتِه وَهَدْيِه»[3].

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «لم يكن بالمدينة أحدٌ أشبه بأهل العلم من ابن عجلانَ كُنْتُ أُشبِّهُهُ بالياقُوتة بَيْنَ العُلَمَاءِ»[4].

وما ذكرته هنا إنما هو قليل من كثير، ولئن كان السمت الحسن في بعض الخلفاء والملوك فهو في العلماء سجية.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٧). (٢) «الفتح» (١٠/ ٥١٠).
(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٦٦). (٤) «الجرح والتعديل» (١/ ٢١٧).

وقد كان لكثير من العلماء من المهابة والجلال ما لا يكون مثلها لكثير من الملوك، قال ابن مهدي ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحدًا أهيبَ، ولا أتم عقلاً من مالك، ولا أشد تقوى»[1].

وقال مصعب بن عبد الله في مالك:

يَدَعُ الجَوَابَ فلا يُراجَعُ هَيْبَةً ... والسائِلُونَ نَواكِسُ الأذْقانِ
عِزُّ الوَقَارِ ونُورُ سُلْطانِ التُّقَى ... فَهُوَ المَهِيبُ ولَيْسَ ذا سُلْطَانِ[2]

وقال محمد بن مُسلم: «كنا نهابُ أن نُرادَّ على أحمد ابن حنبلٍ في الشيء أو نُحَاجَّهُ في شيء من الأشياء يعني لجلالته ولَهَيْبَةِ الإسلامِ الذي رُزِقَهُ».

ولعل في هذا القدر كفاية فلا تكن راغبًا عن العلم؛ فإنه لا مال أفضل منه، ولا جمال أفضل من السمت الحسن.

(١) «السير» (٨/ ١١٣).
(٢) «السير» (٨/ ١١٣)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣١٨)، و«ترتيب المدارك» (١/ ١٦٧).

التمكين في دراسة العقيدة

للتمكن في العقيدة الصحيحة التي عليها السلف الصالح من القرون الثلاثة ومن تبعهم بإحسان يثمر الهدى وحسن السمت .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] .

مثل الله كلمة التوحيد والإيمان كمثل هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بأن لها أصولاً وفروعًا وثمارًا، فأصول هذه الكلمة شهادة التوحيد والإيمان بأصول الدين كلها، وفروعها القيام بشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الخلق ، وثمارها ما يتحلى به صاحبها من كل خلق جميل وهدي حسن وسمت صالح وأوصاف عالية جليلة ، وثمار ذلك من الثواب العاجل والآجل ، فمتى

تمت هذه الشجرة؟ كملت فروعها وتمت ثمارها وعز جناها، ومتى نقصت أو ضعفت ، تبعتها هذه الأمور؛ فضعفت الفروع ، وقلت الثمار أو عدمت؛ فحقيق بكلمة هذه حالها أن يبلغ العبد من معرفتها والعمل بها غاية مقدوره لتوقف سعادته وفلاحه عليها [1] .

أما كيف يكون التمكن من علم العقيدة فلابد من دراسة ذلك على أيدي أهل العلم المعروفين فإن تعسر فلا أقل من قراءة مؤلفاتهم مثل كشف الشبهات[2]، والأصول الثلاثة[3]،وقد شرحهما كثير من أهل العلم،ثم مائتي سؤال وجواب في العقيدة[4] ، ثم الواسطية بشرح ابن عثيمين. ومحمد خليل هراس والفوزان والانتقال من شرح إلى شرح مما يعين على الفهم ، ثم العقيدة الطحاوية ، ويحسن

(١) انظر : مجموع الفوائد لابن سعدي (٩٣-٩٤).
(٢) (٣) للشيخ محمد عبد الوهاب - رحمه الله - .
(٤) للشيخ حافظ حكمي - رحمه الله - .

مع ذلك تسجيل كل ما أشكل عليك في دفتر خاص حتى تسأل أهل العلم فحياة العلم مذاكرته .

ويحسن قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - في باب العقيدة وغيره، واللبيب من كرر القراءة في الكتاب الواحد أكثر من مرة وما تكرر تقرر .



الفصاحة والأدب

١ ـ عناية الإسلام بالأدب:

السمت الحسن كما يكون في الهيئة الحسنة يكون في الفصاحة والأدب، فلا لباس أحسن من الفصاحة ولا زي أحسن من الأدب.

وقد شجع ديننا الحنيف على الفصاحة، والأدب داخل فيها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فجعل يتكلم بكلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنَ البيانِ سِحراً، وإن من الشِّعْرِ حِكَماً»[1].

قال اللؤلؤي: «إن من البيان لسحرًا»، قال: كأن المعنى: أن يبلغ من بيانه أن يمدح الإنسان فيصدق فيه حتَّى يصرف

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٥).

القلوب إلى قوله، ثُمَّ يذمه فيصدق فيه حتَّى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه سحر السامعين بذلك»[1].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ من الشِّعْرِ حكمة»[2].

وحث النبي ﷺ على الاستماع إلى الشعر وإنشاده؛ فعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يومًا فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟»، قلت: نعم، قال: «هيه»، فأنشدته بيتًا فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتًا، فقال: «هيه»، حتَّى أنشدته مائة بيت»[3].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية واستزاد من إنشاده لما فيه من

(١) سنن أبي داود (٥/ ٢٧٦).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٩).
(٣) رواه مسلم (٢٢٥٥).

الإقرار بالوحدانية والبعث، ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه، سواء شعر الجاهلية وغيرهم»[1].

٢ - ثناء النبي ﷺ على الأدب الحسن:

وأثنى النبي ﷺ على الشعر الحسن؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدقُ بيتٍ قالته الشعراء: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل»[2].

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إنَّ روح القدس مع حسَّان ما نافح عن رسول الله»[3].

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٥/١٨).

(٢) البخاري (٦٤٨٩)، ومسلم (٢٢٠٦)، وابن ماجه (٣٧٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠١٣).

(٣) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨٤٦).) وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٠١٥).

وعن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لحسَّان: «اهجهم»، أو قال: «هاجهم - وجبريل معك»[1].

وفي رواية عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة لحسَّان بن ثابت: «اهج المشركين فإن جبريل معك»[2].

ومن الأدب ما يكون جهادًا في سبيل الله؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُ قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشق بالنبل»، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلمَّا دخل

(١) رواه البخاري (٦١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٤١٢٤).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٩٠).

عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبِه، ثُمَّ أدلع لسانه فجعل فقال: والذي بعثك بالحق لأفْرِيَنَّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإنَّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسبًا حتى يُلَخِّصَ لك نسبي»، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخَّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن روح القدس لايزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»[1].

٣ - تمثل النبي ﷺ بالأدب:

ولا يلزم المرء أن يكون شاعراً؛ فالتمثل بالشعر والأدب داخل في الفصاحة وحسن الأدب، وقد كان رسول الله ﷺ يتمثل بالشعر؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول

(١) رواه مسلم (٢٤٩٠).

الله ﷺ إذا استراث الخبر[1] تمثل فيه ببيت طَرَفَة «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد»[2].

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتَّى أغْمَرَ بطنَهُ - أو اغبرَّ بطنُهُ - يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلَّينا

فأنزلنْ سكينة علينا

وثبت الأقدامَ إنْ لاقينا

إنَّ الألى قد بغوا علينا

فإنْ أرادوا فتنةً أَبَيْنَا

ويرفع بها صوته: أبينا، أبينا[3].

(١) استراث الخبر: أي استبطأه.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢٤٥٢٤)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٦/ ٣١).

(٣) رواه البخاري (٤١٠٤).

٤ ـ تمثل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالأدب:

وكذلك كان الصحابة يتمثلون بأشعار غيرهم؛ فعن أبي سنان قال: رأيت أبا هريرة يوم جمعة يقصُّ قائمًا فقال في قصصه: إنَّ أخًا لكم كان لا يقول الرفث ـ يعني عبد الله ابن رواحة ـ فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ مكنون من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ

يبيتُ يجافي جنْبه عن فراشِه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

قال الكرماني ـ رحمه الله ـ: في البيت الأوَّل إشارةٌ إلى علْمه، وفي الثالث إلى عمله، وفي الثاني إلى تكميله غيره ﷺ، فهو كامل مكمِّل»[١].

(١) «فتح الباري» (٨/ ٣٠).

وعن أبي سلمة قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متخرِّقين[١] ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليقُ عينيه كأنه مجنون»[٢].

وعن أبي خالد الوالبي قال: كنت أجلس مع أصحاب رسول الله ﷺ فلعلهم لا يذكرون إلا الشعر حتَّى يتفرقوا»[٣].

وعن أبي عيينة عن عبد الرحمن عن أبيه قال: كنتُ أجالس أصحاب رسول الله ﷺ مع أبي في المسجد، فيتناشدون الأشعار، ويذكرون حديث الجاهلية»[٤].

(١) متخرقين: أي متشققَّة ثيابهم.

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٩٥٧).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٠١٨).

(٤) المرجع السابق (٢٦٠٥٢).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه ربما تمثل بالبيت من الشعر مما كان في وقائع العرب»[1].

وقال عكرمة: كنتُ أسيرُ مع ابن عباس ونحن منطلقون إلى عرفات، فكنتُ أُنشدُهُ الشعر ويفتحه عليَّ»[2].

وروى ابن عقيل في «الفنون» بإسناده، عن هشام بن سليمان المخزومي ، عن أبيه قال : أذن معاوية للناس إذنًا عامًا، فلما احتفل المجلس قال : أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب ، كل بيت منهما مستقل بمعناه، فسكتوا، فلما سكتوا علم أنهم قد أعيوا، إذا طلع عبد الله بن الزبير فقيل : هذا مِقْوَلُ العرب وعلاَّمَتُها، فقال: أبا خبيب! فقال : مهيم ، قال : أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيتٍ قائمٍ بمعناه ، قال : بثلاث مئة ألف، قال:

(١) مصنف عبد الرزاق» (٢٠٥٠٤).
(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٠٢٧).

وتساوي ؟ قال : فأنت بالخيار ، وأنت وافٍ وافٍ ، فأنشده للأفوه الأودي :

بَلَوْتُ الناسَ قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ
فلم أرَ غيرَ ختّالٍ وقالِ

قال : صدقت هيه ، قل البيت الثاني ، فقال :

وذقتُ مرارةَ الأشياءِ جمعًا
فما طعمٌ أمرُّ من السؤالِ

قال : صدقت ، قل البيت الثالث ، فقال :

ولم أرَ في الخطوب أشد وقعًا
وأصعب من مُلاحاة الرجالِ[1]

وكان الصحابة يتمثلون بالشعر لكن لم يكن ذلك

(١) الآداب الشرعية (٢٤٩/٤) .

الغالب عليهم، فقد بوب البخاري في كتابه (الأدب المفرد) باب من كره الغالب عليه الشعر.

وذكر تحته حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يَمْتَلِئَ جَوْفُ أحدِكُمْ قيحًا خيرٌ لهُ منْ أن يَمْتَلِئَ شعرًا»[1].

فالنهي عن أن يشغل الإنسان وقته بالشعر بحيث يكون الغالب عليه فيشغله ذلك عن قراءة القرآن وذكر الله والمأذون فيه ما سلم من ذلك.

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، فهي منسوخة بما بعدها؛ فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤)، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٦)؛ فنسخ من ذلك

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٦).

واستثنى، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلى قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٧)»[1].

٥ ـ الصحابة يتمثلون بالأدب الحسن:

مع أن الصحابة كانوا يتمثلون بالشعر فليس معنى ذلك أنهم كانوا يتمثلون بالشعر حسنه وقبيحه، كلا وحاشا لهم ذلك، فما كانوا يتمثلون إلا بالشعر الحسن؛ فعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشِّعْرُ بمنزلة الكلام؛ حَسَنُهُ كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «الشِّعْرُ منه حَسَنٌ ومنه قبيحٌ، خُذ بالحَسَنِ ودَعِ القَبِيحَ، ولقد رويتُ من شعرِ

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧١)، وأبو داود في «سننه» (٥٠١٦) بإسناد حسن وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٤٨٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٤٤٨): صحيح لغيره.

كعبِ بن مالك أشعاراً، منها القصيدة فيها أربعون بيتًا، ودونَ ذلك»[١].

وجميل الشعر ما كان مدحًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم نبيه من غير غلو ولا إسراف، ثم مدح الإسلام وأهله المستمسكون به وغير ذلك مما يحث على التخلق بأخلاقه؛ فعن الحسن أن الأسود بن سريع حدَّثه قال: كنت شاعرًا، فقلت: يا رسول الله! امتدحْتُ ربِّي، قال: «أما إنَّ ربك يُحبُّ الحَمْدَ»، وما استزادني على ذلك»[٢].

٦ ـ استحباب تعلم العربية:

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا فصحاء كلهم بالفطرة بل كانوا أفصح العرب، فلم يكونوا بحاجة إلى

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٨٨).

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣١٧٩).

تعلم العربية، لكن لما اختلط العرب بالعجم وكثرت الفتوحات وقع اللحن عند المولدين فوضعوا للعربية قواعد وأصولاً، فنحن بحاجة إلى تعلمها لتستقيم ألسنتنا وتزداد عقولنا بمشابهة صدر هذه الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا، ويؤثر ـ أيضًا ـ في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد في العقل، والدين والخلق ـ وأيضًا ـ فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «وكان السلف يؤدبون أولادهم على

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٤٦٨).

اللحن[1]، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصًا وعيبًا»[2].

وقال ابن بسام:

فلا تدع إصلاح اللسان فإنه
يخبرُ عن ما عندَه ويبينُ
ويعجبني زيِ الفتى وجماله
ويسقطُ من عيني ساعةَ يلحنُ
على أنَّ للإعراب حدًا وربَّما
سمعتُ من الإعرابِ ما ليس يحسنُ
ولا خير في اللفظ الكريهِ سماعه
ولا في قبيح الظنِّ بالفعل أحصنُ

(١) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» (٨٨٠)، بسند صحيح صححه الألباني في «الأدب المفرد» (ص٣٠٧)، عن نافع قال: «كان ابن عمر يضربُ ولَدَهُ على اللَّحْنِ».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٢/٢٥٢).

وقال شبرمة ـ رحمه الله ـ: «ما لبس الرجل لباسًا أجمل من العربية»[1].

وقال ـ أيضًا ـ: «إذا سرَّك أن تَعْظُمَ في عين من كنت في عينه صغيرًا، ويَصْغُرَ في عينك من كان في عينك عظيمًا فتعلم العربية؛ فإنها تجرِّؤك على المنطق، وتدنيك من السلطان»[2].

وبلغ من إنكار قتادة على من أهمل لسانه وضيَّع بيانه أن قال: «لا أسأل عن عقل رجل لم يدلَّه عقله على أن يتعلم من العربية ما يصلح به لسانه»[3].

وقال بعضهم يوصي بنيه: «يا بَنِّي، أصلحوا ألسنتكم، فإنَّ الرجل تنوبُهُ النائبة يحب أن يتجمَّل، فيستعيرُ من أخيه

(١) «تنبيه الألباب» (ص٤٩).

(٢) «عيون الأخبار» (٢/١٥٧).

(٣) «تنبيه الألباب» (ص٣٠).

دابته وثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه».

ويشبه هذا قول المأمون لأحد أولاده وقد سمع منه لحنًا: ما على أحدكم أن يتعلَّم العربية، فيقيم بها أَوَدَهُ، ويزين بها مشهده ويَفُلَّ بها حُجَجَ خصمه بمُسكتات حِكَمِهِ، ويملك مجلس سُلطانه بظاهر بيانه، أو يسرَّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبيده أو أمته فلايزال الدَّهْرَ أسيرَ كلمته[2].

إني وإن كانت أثوابي ملفقةً ... ليست بخزٍّ ولا منْ نسج كتان

فإن في المجدِ هامتي وفي لغتي ... فصاحةٌ ولساني غير لحَّانِ[2]

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٦٤).

(٢) «المفرد العلم» للهاشمي (ص٣٩).

٧ ـ نفور السلف من اللحن في الكلام:

وكان السلف ينفرون من اللحن في الكلام ويستعظمون ذلك، قال عبد الله بن المبارك: «اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه»[1].

والرجل تكون له المنزلة العظيمة في القلوب والهيبة في النفوس فإذا لحن في كلامه قَلَّت مكانته وضعفت هيبته.

قال سعيد بن سليمان: «دخلتُ على الرشيد فبهرَني هيبةً، فلما لحَنَ خفَّ في عيني»[2].

وتكلم أبو جعفر المنصور في مجلسٍ فيه أعرابيٌّ فلَحنَ فَصَدَّ الأعرابي أذنيه، فلَحَنَ مرَّةً أخرى أعظم من الأولى، فقال الأعرابي: أفٍ لهذا ما هذا؟ ثم تكلم فلحن الثالثة، فقال الأعرابي: أشهد لقد وليتَ بقضاءٍ وقدرٍ[3].

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٦٥).

(٢) «تنبيه الألباب» (ص٧٤).

(٣) «معجم الأدباء» (١/ ٨٤).

٨ ـ الأدب حلية من لا حلية له:

ومع إن حسن السمت هو المظهر الخارجي للإنسان فالفصاحة وحسن الأدب هي الحلل الذهبية التي يزداد به السمت جلالاً وجمالاً.

قال ابن شبرمة: «ما رأيتُ لباسًا على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة من شحم، وإن الرجل يتكلم فيُعربه، فكأنَّ عليه الخَزَّ الأدكن، وإن الرجل ليتكلم فيلحنَ، فكأن عليه أسْمالاً»[١].

ولعل قائلاً يقول: «إنَّ العاميةَ ضرورةٌ لازمةٌ لمخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ فالجواب عليه قال د/ فتحي جمعة ـ أستاذ العلوم اللغوية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ـ حفظه الله ـ: «إنَّ المخاطبة على قدر العقول لا تعني تبذل اللغة، أو هبوط الكلام، وانحرافه عن سنن

(١) «روضة العقلاء» (ص٣٦٠).

الفصحى، وإنما تعني الابتعاد عن تعقيد الفكرة، والتقعر في اللغة، أي تعمد اختيار الصعب من التركيب، والغريب الوحشي من الكلام.

أما الجنوح إلى العامية بدعوى (إفهام العوام) فإن لم يكن مداراة للعجز عن الفصحى، وقِصَر الباع في استعمالها ـ فهو ادعاء يظلم الفصحى والعوام في وقتٍ معًا! يظلم الفصحى بأنها غير مفهومة، ووالله إنَّها لمفهومة! ويظلم العوام بأنهم لا يفهمون، وتالله إنهم ليفهمون! وإلا فكيف يخشعون للقرآن، ويتأثرون ببالغ الموعظة وجميل البيان». ١



١ـ فقرة د/ خلاصة « للعدوي (١/٢١٤ـ٢١٥)

اتزان الكلام

لا يكون الرجل متصفًا بالسمت الحسن حتى يتصف بالرزانة في كل شيء، ومن الرزانة اتزان الكلام، فإن رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاةِ ليس بمحمود، وهو داخل في باب الصوت المنكر الذي يضع من قيمة صاحبه؛ قال الله - سبحانه -: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: ١٩).

قال ابنُ كثير - رحمه الله -: « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ، أي لا تبالغ في الكلام، وترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ».

قال مجاهد وغير واحد: « ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ أي: غاية مَنْ رفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعه - وهو مع هذا بغيض إلى الله، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم»[1].

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣٠).

وقال ابن سعدي - رحمه الله -: « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ، أدبًا مع الناس ومع الله، ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ ﴾ ، أي أخنعها وأبشعها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة أو مصلحة لما اختص الحمار بذلك الذي علمت خسته وبلادته»[1].

وقال ابن قتيبة: «عَرَّفَه قُبْحَ رفع الأصوات في المخاطبة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية»[2].

وقال ابن زيد: «لو كان رفع الصوت خيرًا ما جعله الله للحمير، وقال سفيان الثوري: «ضِياحُ كل شيء تسبيحٌ لله إلا الحمار؛ فإنه ينهق بلا فائدة»[3] »[4].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لابن سعدي (٦/ ١٦٠).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).

(٣) قال أحمد الشيوخ - حفظه الله -: «إن نهيق الحمار يستفاد منه فائدة بخير من جليس السوء؛ وذلك بأن الحمار إذا نهق ذكرك أن تستعيذ بالله من الشيطان كما جاء في الحديث الآمر بالاستعاذة عند نهيق الحمار».

(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).

ولئن كان خفض الصوت وعدم رفعه عن القدر المعتاد جميل مع كل أحد فهو مع أهل الفضل والعلم والدين أَجَلُّ.

وقد كان بعض الصحابة يرفعون من أصواتهم في حضرة النبي ﷺ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

وهذا أدب مع رسول الله ﷺ فأمر الله -سبحانه وتعالى- الصحابة أن يخفضوا أصواتهم عنده تعظيمًا وتكريمًا وإجلالاً، ويرى بعض أهل العلم أن من الأدب مع رسول الله ﷺ خفض الصوت عند سماع حديثه بعد مماته كما هو في حياته، ويدخل في هذه الآية خفض الرجل صوته مع من هو أعلى منه مكانة.

ومما جاء في صفة النبي ﷺ في التوراة أنه لم يكن صخابًا أي عالي الصوت، ولم يكن ـ أيضًا ـ خافتًا في

صوته ولكن كان بين ذلك فينبغي التشبه به، في سمته وهديه وفي شأنه كله إلا ما كان من خصائصه؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «إنَّ هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥)، قال في التوراة: «يأيها النبي إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا[1] للأُمِّيِّين[2]، أنت عبدي ورسولي سمَّيتك المتوكِّل[3]، ليس بِفَظٍّ ولا غليظٍ ولا سخاب[4] بالأسواق، ولا يدفعُ السَّيِّئَة بالسَّيِّئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضَهُ الله حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، فَيَفْتَحَ به أعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا»[5].

(١) حرز: أي عصمة.
(٢) الأميين: العرب.
(٣) المتوكل من أسماء النبي ﷺ سمي به لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره، قاله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٥٠).
(٤) سخاب وصخاب: عالي الصوت.
(٥) رواه البخاري (٤٨٣٨).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يوصي طالب العلم: ينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلاً ولا صخابًا ولا صيَّاحًا ولا حديدًا[1]»[2].



(١) الحديد يعني الشديد الغليظ.
(٢) «الفوائد» (١٤٤).

حسن الاستماع

متى أقبل المرء على محدثه بالإصغاء إليه بالآذان، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه فقد تحلى بالسمت الحسن الذي لا خيار فيه ولا عثار، فحسن الاستماع من أخلاق الرجل النبيل ذي المروءة والأدب وكرام الناس يراعون هذا الأدب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس وأن أصغي إليه إذا تحدث»[1].

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي»[2].

(١) «عيون الأخبار» (٣٠٧/١).
(٢) المرجع السابق (٣٠٦/١).

وروى ابن حبان بسنده إلى معاذ بن سعيد الأعور ـ رحمه الله ـ أنه قال: «كنتُ جالسًا عند عطاء بن أبي رباح، فحدث رجل بحديث فعرض رجل من القوم في حديثه، قال: فغضب، وقال: ما هذا الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به، فأريه كأني لا أحسن شيئًا»[١].

وقال: «إنَّ الشاب ليتحدث بالحديث فأسمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته من قبل أن يولد»[٢].

وقال الحسن: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتَعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه»[٣].

وأوصى خالد بن يحيى ابنه، فقال: «يا بُنيَّ إذا حدثك جليسك حديثًا فأقبل عليه، وأصغِ إليه، ولا تقل

(١) «روضة العقلاء» (ص٧٢)، و«تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٥).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٥).
(٣) «المنتقى» (ص١٥٥).

قد سمعته وإن كنت أحفظ منه، فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك»[١].

وعن إبراهيم بن الجنيد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «قال حكيم لابنه: يا بُني تعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتَّى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة بحديثٍ أنت تعرفه»[٢].

ومن درر ابن المقفع قوله: «تَعلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلَّم حُسْنَ الكلام، ومن حُسْنِ الاستماع إمهالُ المتكلِّم حتى يَنْقَضِيَ حديثُهُ، وقلَّة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوَعيُ لما يقول: واعلم، فيما تُكلم به صاحبك، إن مما يُهَجِّنُ صواب ما يأتي به، ويذهب بِطَعْمِهِ وبَهْجَتِهِ، ويُزْرِي به في قبولِهِ،

(١) «بهجة المجالس» لابن عبد الله (٤٣/١).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (ص١٣٦).

عَجَلَتَكَ بـذلك، وقَطْعَكَ حديثَ الرَّجُل قـبل أن يُفضي إليك بذات نفسه[١]»[٢].

وقال ـ أيضًـا ـ: «وإذا رأيت رجلاً يحـدِّث حديثًـا قد علمتـه، أو يخبر خبـرًا قد سمعـته، فلا تشارك فـيه، ولا تتعقبه عليه حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة، وسوءُ أدبٍ وسخفٌ»[٣].

وقال: «من الأخلاق التي أنت جدير بتركها ـ إذا حدث الرجل حديثًـا تعرفه ألا تسابقـه، وتفتحه عليـه، وتشاركه، حتَّى كأنك تظهر لـلناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم، وما عليك إلا أن تهنئه بذلك، وتفرده به، وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثير»[٤].

(١) **يفضي إليك بذات نفسه:** أي يكشف لك مكنون صدره.
(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٢٩، ١٣٠).
(٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٣٦).
(٤) المرجع السابق (ص١٦٨).

ومن السمت الحسن إذا سألك أحد فلا تعجل إلى جـواب، ولا تهـجم على سـؤال؛ فـإن ذلك رعـونة وطيش، والبصيـر العاقل يستفهم قـبل الجواب، ويبدأ جوابه بمقـدمة حسنة، كالـثناء على الله وعلى رسوله، ثم يجيب بجواب لا ريث فيه ولا عجل، فذلك أدعى لوقار الكلمة وجلال المتكلم.



تجنب الإلحاح

الإلحاح مناف للسمت الحسنِ بل إنه مناف للوقار مناف للسكينة مناف للمروءة، وانظر أمَنْ يطلُبُ إليك بالإجمال والتكرم أحق أن تسخُو نفسك له بطلبته أم مَنْ يطلُبُ إليك بالإلحاح؟

فإذا كانت لك إلى أخيك حاجة فصن نفسك عن الإلحاح؛ فإنك متى ألححت عليه في الطلب أحدث لك في قلبه رِقَّة شأنٍ وسخف مَنْزِلَةٍ.

ومتى ألححت على أخيك فربما أعطاك من غير طيب نفس فلم يبارك لك فيه[1].

(١) أخرج البخاري في «صحيحه» (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خضرة حلوةٌ، فمن أخذه بسخاوة نفس - أي بغير شَرَهٍ ولا إلحاح، وبغير سؤال - بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ =

وربما أعطاك من الوعود ما لا طاقة له بالوفاء فتركك الإلحاح أمحض في التكرم وأبرأ من الدنس.

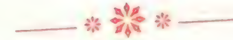
فإذا طلبت إلى أخيك حاجة، أو قرضة، أو شفاعة، أو دعوة، أو أي شيء كان فجميل أن يكون طلبك بكلمةٍ واحدةٍ تزينك خير من إلحاح يشينك، وما هو كائن سيكون بقضاء الله وقدره وما لا يكون فلا يكن بإلحاح ومهانة.

وربما من تلح عليه تصرف معك تصرفات غيرك أحوج إليها منك؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما جاء قتل زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة جلس النبي ﷺ يُعرف فيه الحزن - وأنا أطَّلع من شق الباب - فأتاه رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر - وذكر بكاءهنَّ - فأمره

= - أي طمع النفس فيه، وتطلعها إليه - لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»، قال حكيم: قلتُ: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا».

أن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهنَّ، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبنني - أو غلبننا - فزعمت أن النبي ﷺ قال: «فاحث في أفواههن التراب»، فقلت: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء»[1].

ومن درر الإمام سفيان الثوري -رحمه الله- قوله: «الإلحاحُ لا يصلحُ، ولا يَجْملُ إلا على الله - عزَّ وجلَّ -»[2].



(١) رواه البخاري (١٣٠٥).
(٢) الآداب الشرعية (٢/٢٨٦).

الجدُّ

١ ـ المسلم بناء أمره على الجد:

الجد وحسن السمت صنوان لا يفترقان، والمسلم بناء أمره على الجد، فيولي وجهه شطر معالي الأمور وينأى بنفسه عن سفاسفها، وهزلها، وليس معنى أن يكون الرجل شديداً حديداً ولكنه الاعتدال وعدم الخلط بالجد هزلاً ولا بالهزل جداً.

كالمزاح ينبغي الإقلال منه وعدم الإسفاف والتمادي فيه.

٢ ـ صور من مزاح النبي ﷺ:

وقد كان النبي ﷺ يمزح ومزاحه ﷺ جزءٌ من تربيته لأصحابه والتحبب إليهم؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا قال: «إني لا أقول إلا حقاً»[1].

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٨٣٦٦)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٦).

قال المباركفوري - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «والأظهر أن منشأ سؤالهم أنه ﷺ نهاهم عن المزاح كما سيجيء في باب المراء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إني لا أقول إلا حقًا»؛ أي: عدلاً وصدقًا لعصمتي عن الزلل في القول والفعل، ولا كل أحد منكم قادرًا على هذا الحصر؛ لعدم العصمة فيكم»[1].

وقد كان النبي ﷺ يمزح - أحيانًا - ومن مزاحه ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[2].

وفي رواية عن أنس أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبي طلحة يكنى: أبا عُمير، وكان يمازحه فدخل فرآه حزينًا فقال: «ما لي أرى أبا عُمير حزينًا؟»،

(١) «تحفة الأحوذي» (٥/ ٤٠٠).
(٢) رواه البخاري (٦١٢٩).

فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به، فقال: فجعل يقول: «أبا عُمير ما فعل النغير؟»[1].

فانظر أخي إلى مزاحه ﷺ فتجد البهاءَ والجلالَ فتزداد له حبًا وتوقيرًا، فالحقُّ حليته، والصدق - الذي هو عنوان الجد - دثاره، والتحبب شعاره.

ومزاحه ﷺ كثير الفوائد عظيم العوائد؛ فقد ذكر القاضي عياض - رحمه الله - ستين فائدة من فوائد هذا الحديث (أي حديث أبي عمير لخصها ابن حجر في الفتح)[2].

٣ - أقسام المزاح:

وينقسم المزاح إلى قسمين:

١ - محمود: وضابطه كما قال ابن حبان: «هو الذي لا تشوبه ما كره الله - عزَّ وجلَّ - ولا يكون بإثم، ولا قطيعة رحم»[3].

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٤٨٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٢٨).
(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٢٢٧).
(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٧).

٢- مذموم: وضابطه كما قال ابن حبان - أيضًا -: «الذي يثير العداوة ويُذهب البهاءَ، ويقطعُ الصَّداقة، ويُجَرِّئُ الدَّنيءَ عليه، ويُحْقد الشريفَ به»[1].

ومن فوائد المزاح المحمود كما قال بعضهم: «يُسَلِّي الهمَّ، ويرقَعُ الخُلَّة[2]، ويحيي النفوسَ، ويميل قلوبَ الناس إليه»[3].

وكتبَ بعضهم إلى صاحب له: «ولنا بعد مذهب في الدعابة جميلٌ لا يشوبه أذىً ولا قَذَىً، يخرج إلى الأُنس من العُبُوسِ، وإلى الاسترسال من القطوب، ويُلحقنا بأحرار الناس وأشرافهم، الذين ارتفعوا عن لبسة الرِّياء والتَّصنُّع»[4].

(١) المرجع السابق (ص٧٧).
(٢) الخُلَّة: - بضم الخاء - الصداقة، أي يرقَعُ ويُصْلح من الصداقة والمودة ما مزقته الملالة والسأم.
(٣) «مسافر في قطار الدعوة» (ص٢٤٧).
(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٧٤).

ومن مخاطر المزاح المذموم: إفسادُ المودَّة، وإيغار الصُّدُور، وإثارةُ العداوة، وذهابُ البهاء، وتجرئة الدَّنيء، وحقد الشريف، وإحياءُ الضَّغينة»[1].

وهذا ما حدَا مِسْعَرَ بن كُدام إلى أن ينصحَ ابنه كُدامًا قائلاً:

إنِّي نحلْتُكَ[2] - يا كُدامُ - نصيحَتي
فاسْمَعْ مقالَ أبٍ عليك شفيقِ
أمَّا المُزاحَةُ والمراءُ فَدَعْهُما
خُلُقانِ لا أرضاهُما لصديقِ
إنِّي بَلَوتُهُما[3] فَلَمْ أَحْمَدْهُما
لمجاورٍ جاراً ولا لشَقيقِ[4]

وفي بعض منثور الحكم: «المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب»[5].

(١) «روضة العقلاء» (ص٧٧-٨٠).
(٢) نحلتُك: من النِّحلَة، وهي العطيَّة الخالصة على وُدٍ وتكريمٍ.
(٣) بَلَوتُهَا: اختبرتها وجربتها.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٧٨-٨٩).
(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٠).

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحه زالت هيبته»[1].

وقال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأغراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء»[2].

وكان يقال: لكل شيء بداء، وبداء العداوة المزاح، وكان يقال: «لو كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر»[3].

وقال أبو هفان:

مازح صديقك ما أحبَّ مزاحا
وتوقَّ منه في المزاح جماحا

فلربما مزح الصديق بمزحةٍ
كانت لبابِ عداوة مفتاحا[4]

(١) المرجع السابق (ص٣١٠).
(٢)، (٣) «بهجة المجالس» (ص٥٦٩).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٥٧٠).

وصفوة القول أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف، فيه أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة، وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم»[1].

أفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ[2] بالجِدِّ رَاحَةً
يجم، وَعَلِّلْهُ بشيءٍ مِنَ المَزْحِ

ولكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المزْحَ، فلْيكنْ
بِمقْدارِ ما تُعْطي الطَّعَامَ منَ الملحِ[3]

٤ ـ لا تمازح هؤلاء:

يحسن مراعاة أحوال الناس وتوخِّي طباعهم؛ فإن من الناس من يجرُّه المزاح إلى الأذى ولا بأس من ذكر من لا يحسن المزاح معهم:

(١) «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي (ص٧٠).
(٢) المكدود: المتعب المُرهَق من شدَّة العمل.
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١١).

(أ) الغرباء:

لا تمازح غريبًا لا يعرفك فينزلك غير منزلتك، قال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا ويضاحكنا، وإذا رأى غريبًا قال هذا جاسوس»[(١)].

وقال سعيد بن العاص: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك»[(٢)].

(ب) الصبيان:

كذلك الصبيان يحسن التحفظ من المزاح معهم، فربما كان فيهم واقحًا يظن أنك لم تمازحه إلا لهوانك عليه، ولكن من عرفت طبعه وحسن أدبه فلا تبخل عليه بمزحة تجعله يحبك ويأنس إليك؛ فعن محمد بن المنكدر قال: قالت لي أمي وأنا غُلامٌ: «لا تمازح الغلمان فتهون عليهم»[(٣)].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٣١).

(٢) «بهجة المجالس» (٢/٥٦٩).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٨٠).

(جـ) العامة:

لا ينبغي لطالب العلم ومن يُقْتَدَىٰ به المزاحُ بحضور العوام؛ «وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصًا في أمرٍ مباحٍ كالمزاح هان عندهم، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم، فقد قال بعض السلف: كنَّا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك».

وقال سفيان الثوري: تعلموا هذا العلم وأكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب، فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر، وقد قال ﷺ لعائشة: «لَوْلا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ»[(١)]، وقال أحمد ابن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتها، ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء إنما هذا صيانة للعلم.

---

(١) رواه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم، ومتى أراد مباحًا فيستتر به عنهم[1].

وقال ابن المقفع: «الْبَسْ للناسِ لباسَيْنِ لَيْسَ للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عَيْشَ ولا مُرُوءةَ إلا بهما: لِباسَ انقباضٍ واحتجازٍ مِنَ الناس، تَلْبَسُهُ للعامَّة فلا يلقَوْنَكَ إلا مُتَحَفِّظًا مُتشدداً مُتَحَرِّزًا مُسْتَعِدًا، ولِبَاسَ انبساط واسْتِئْناس، تلبَسُهُ للخاصَّةِ الثِّقاتِ مِنْ أصدقائكَ فَتَلْقاهُم بذاتِ صَدْرِكَ وتُفْضِي إليهم بمَصُونِ حديثِكَ وتَضَعُ عَنْكَ مَؤونَةَ الحَذَرِ والتَّحفُّظِ فيما بيْنَكَ وبيْنَهُمْ، وأهْلُ هذه الطبَقَة، الذينَ هُمْ أهْلُهَا، قليلٌ من قليلٍ حقًا؛ لأن ذا الرأي لا يُدْخِلُ مِنْ

(١) «صيد الخاطر» (ص١٨٣).

نَفْسِه هذا الدَّخَلَ إلا بَعْدَ الاختبار والتَّكَشُّفِ[1]، والثِّقة بِصدقِ النَّصيحة ووفاء العَهْدِ»[2].

وقال ابن حبَّان: «مَنْ مازح رجلاً من غير جنسه، هان عليه، واجترأ عليه، وإن كان المزاح حقًا؛ لأن كل شيء لا يجب أن يسلُك به غير مَسْلكه، ولا يظهر إلا عند أهله، على أنِّي أكره استعمال المزاح بحضرة العامة، كما أكره تركه عند حضور الأشكال»[3].

(د) الأعداء:

لا يحسن ولا يجمل المزاح مع الأعداء لما يقود إلى مفسدة تؤذيك، وربما قدحت زند الإحن في صدورهم فلاقيت منهم بعض ما تكره.

(١) التكشف: إظهار ما في النفس.

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (ص١٠٥-١٠٦).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٨١).

قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «وليحذر أن يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقًا إلى إعلان المساوئ، وهو مجدٌّ، ويفسح له في التشفي مزحًا وهو مُحِقٌّ، وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك»[1].

٥ ـ إذا لسعتك مزحة فتوقر:

من اللَّباقة أن تُحْسن التَّصرُّف مع من يُخْطئ معك في مزحه،حسب ما يناسب المقام من ردٍّ مُفْحِم، أو تحديق النظر فيه، أو غير ذلك، واحترس من سَوْرَة[2] الغضب واعلم أن الكرام هم أصبر نفوسًا، وأشرف همةً، وإعراضك عن الجاهل محض في التكرم وأبرأ من الدَّنَسِ وأنْزَهُ.



(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٣).
(٢) سورة كل شيء شدته وحدَّته.

ترك الفضول

من حسن السمت ترك بعض الفضول؛ فمن ذلك فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول المخالطة، وفيما يأتي الحديث عن فضول الكلام ثم ذكر الباقي:

أولاً ـ فضول الكلام:

وفضول الكلام لا خير فيه البتة، منه ما هو مضرة محضة، فمتى علم المرء أن كل كلمة تكتب له أو عليه، أمسك عن كثير من كلامه وما يعقلها إلا العالمون، ومتى تم عقل المرء قل كلامه، ومن أمثال العرب: «بترك الفضول تكمل العقول».

وما أكثر الأدلة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ التي تحث على ترك الفضول والإمساك عن كثير من الكلام فمنها:

ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، ومعنى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ،

أي خير وشر، ﴿إلاَّ لديه﴾ مراقب له يسجل كل كلمة يتلفظ بها.

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ (النساء: ١١٤).

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أي لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون وإذا لم يكن فيه خير، فإما ما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه»[١].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٢].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وهذا من جوامع الكلم؛ لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض لزوم الصمت»[١].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه»[٢].

ومعنى الحديث أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يهمه أمره، فإن الإقبال على ذلك بالقول أو الفعل فضول لا منفعة منه أصلاً.

وقلَّ أن يندم رجل على ترك الفضول، لكن المتكلم فيما لا يعنيه هو الذي قد ندم مراراً، وقلَّ أن تجد رجلاً اجتمع له مع الهذر حسن السمت بل إن ذلك لا يكاد يوجد.

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٦٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

وإن الناظر إلى إمساك السلف عن فضول الكلام ليرَى عجبًا؛ فهذا الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: «لقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل منهم ليجلس مع القوم فيروه عييًا ـ أي من طول صمته ـ وما به عِي، إنه لفقيه مسلم»[١].

وقال عطاء: «كانوا ـ أي السلف ـ يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه أو أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لابد لك منه»[٢].

إن كان يعجبك السكوت فإنه
قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوت مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارًا[٣]

(١) «صحيح الزهد» للإمام وكيع بن الجراح (ص٥٥).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٦٦).
(٣) «روضة العقلاء» (ص٤٣).

ثانيًا ـ فضول النظر:

ليس من حسن السمت تقليب النظر في كل غادٍ ورائح، وغير ذلك كالقصور والدُور وكل مركوب، وغير ذلك من المتاع.

وقد نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن تقليب النظر إلى متاع الدنيا الزائلة وزهرتها الفانية؛ لأن ذلك مظنة التعلق بها، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين وإنما فيه راحة للنفس فقط؛ كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي يُستعان به على الحق»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر[٢] أن لا تزدروا[٣] نعمة الله عليكم»[٤].

قال النووي - رحمه الله -: «قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّلَ عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله - تعالى - وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس.

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٥).
(٢) أجدر: أحق.
(٣) تزدروا: تحتقروا.
(٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣) واللفظ له.

وأمَّا إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه ظهرت له نعمة الله عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير»[١].

وكان السلف يكرهون فضول النظر فكان حسن السمت ملازمًا لهم لزوم الظل لصاحبه.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «يا بني لا تتبع بصرك كل ما ترى في الناس؛ فإنه من يتبع بصره كل ما يرى من الناس يظل حزنه ولا يشف غيظه، ومن لا يعرف نعمة الله إلا في مطعمه أو مشربه فقد قلَّ علمه وحضر عذابه، ومن لم يكن غنيًا من الدنيا فلا دنيا له»[٢].

وقال رضي الله عنه: «إياكم والسوق؛ فإنها تُلغي وتُلهي»[٣].

وقال رجل لداود الطائي - رحمه الله -: «لو أمرت بما في سقف البيت من العنكبوت فَنُظِّف، فقال له: أما علمت

(١) «شرح النووي على مسلم» عند شرحه لحديث (٢٩٦٣).
(٢) «الزهد» للإمام أحمد (ص١٩٦).
(٣) المرجع السابق (ص١٦٨).

أنهم كانوا يكرهون فضول النظر، ثم قال: نبئتُ أن مجاهدًا كان العنكبوت في بيته ثلاثين سنة لم يشعر به»[١].

وقدم الأحنف بن قيس من سفرٍ وقد غيَّروا سقف بيته أو قد حمَّروا السقائف وخضروها فقالوا له: ما ترى إلى سقف بيتك؟ قال: معذرة إليكم إني لم أره، لا أدخل حتَّى تغيروه»[٢].

فهذا بعض ما جاء في فضول النظر.

ومن النظر ما يكون مكروهًا كالنظر إلى زهرة الدنيا على وجه الاستحسان، ومنها ما يكون مستحبًا كالنظر لأثر من قبلنا للعظة والاعتبار، والنظر إلى الأزهار والطبيعة على وجه التفكر والتأمل في خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومنه ما هو محرم كالنظر إلى النساء الأجنبيات والأمرد والحسن والنظر إلى العورة ومحل الشَّهْوَةِ.

(١) المرجع السابق (ص٢٥٥). (٢) المرجع السابق (ص٣٣٨).

وهذا الأخير الحديث عنه ذو شجون[١]، وأمره معلوم لكل ذي لب.

وبقي كثرة الالتفات سواء بالعين أو بالوجه، فهو مناف للسمت الحسن بل أمارة على خفة العقل وسوء الأدب.

قال علي رضي الله عنه: «لن يعدم من الأحمق خَلَّتَيْن[٢]، كثرةُ الالتفات وسرعة الجواب بغير عرفانٍ»[٣].

ثالثًا ـ فضول المخالطة:

العزلة عن الناس ـ أحيانًا ـ وسيلة إلى حفظ اللسان وحفظ البصر وحفظ السمع عن سماع ما يكدر النعم ويملأ القلب من الحِنات والأحقاد والعدوان وهي ـ أي العزلة ـ مستحبة لحفظ الوقت ومحاسبة النفس.

(١) مظان ذلك كتاب «فتنة النظر» لراقمه.

(٢) الخلَّة: الخصلة والعادة.

(٣) كتاب «الآداب» لابن شمس الخلافة (ص٥٦).

وهي من أعظم وسائل حفظ السمت لأن الرجل ربما خالط من لا يشاكله فلا يأمن على نفسه الضرر.

وربما سمع كلمة عوراء أيقظت الحمية في نفسه، فلا يأمن من أن يرد بمثلها أو أشد، فأي سمت بقي له بعد هذا، والسلامة لا يعدلها شيء[١].

قال عمر ﷺ: «خذوا بحظكم من العزلة»[٢].

وقال أبو الدرداء ﷺ: «نعم صومعة الرجل بيته يكف بصره ولسانه»[٣].

وقال مسروق ـ رحمه الله ـ: «إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر فيها ذنوبه فيستغفر منها»[٤].

---

(١) الخلطة إذا كانت لنشر العلم وعيادة المريض وتشييع الجنائز، والإصلاح بين الناس وغير ذلك من وجوه البر فهي غنيمة وليس من العزلة في شيء.
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١١٤).
(٣) «صحيح كتاب الزهد» للإمام أحمد (ص٨٩).
(٤) «الزهد» للإمام أحمد (ص٤٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع ـ وذلك بالزهد فيه ـ فذلك مستحب»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «ولابد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه»[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة»[٣].

---

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠/٤٠٥).
(٢) المرجع السابق (١٠/٤٢٦).
(٣) «بدائع الفوائد» (ص/٢٣١).

وقال ـ أيضًا ـ: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما ـ اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذه مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أن يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني ـ الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها ـ تزين بعضهم لبعض.

الثانية ـ الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة ـ أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

بل إن إدمان الخلطة بالناس بلا مسوغ سبب للرياء وطريق إلى الهلاك، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «لا يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن مشغول القلب بالحق يفر من الخلق، متى تمكن فراغ من معرفة

الحق امتلأ بالخلق، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم»[(١)(٢)].



---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢١٧).

(٢) من أراد المزيد عن معرفة فوائد العزلة فعليه بكتاب «الأمر بالعزلة» للإمام ابن الوزير، فقد أفاض في ذلك ما أفاض وذكر خمسين نصًا غير الفوائد العلمية والمسائل النظرية.

وقال في مقدمة كتابه أبيات لطيفة له فمنها:

خلَت الثواقب في المناقب نُظِّمت ... فوق الطروس فرائداً وعقودا

وبذلك آثار تواتر نقلها ... وتكاثرت وتبددت تبديدا

منها هنا خمسون نصًا سُقتُها ... مما يصحح مسنداً منقودا

غير الشواهد من فنون جمَّةٍ ... منثورة نضدتها تنضيدا

لزوم المروءة

المروءة هي السمت الحسن فـي أبهى حلة وأجمل صورة فهي مـبدأ صـدور الأفعال الجـميلة التي تزين المـرء وتجعله مهيبـًا في العيون محبوبًا في القلوب وقـورًا في الأسماع، والمروءة كما عرفها الكفوي: «هي الرَّجُولِيَّة الكامِلَةُ»[1].

وعرفـهـا الجـرجاني ـ رحـمه الله ـ فـقال: «هـي قُوَّةٌ للنَّفْسِ مبدأٌ لصدور الأفعال الجميلـة عنها، المستتبعة للمدح شرعًا وعقلاً وعرفًا»[2].

ولكل شيء مـروءة؛ فمروءة اللسـان: حلاوته وطيـبه ولينه، ومروءة الخلق: سـعته وبسـطه للحبيب والبـغيض، ومروءة المال: الإصابة ببـذله مواقِعَهُ المحمودة عـقلاً وعرفًا وشـرعًا، ومـروءة الجـاه: بذله للمحـتـاج إليه، ومـروءة

(١) «الكليات» للكفوي (ص٧٨٤).
(٢) «التعريفات» للجرجاني (ص٢١٠).

الإحسان والبذل: تعجيله وتيسيره وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه[1].

ومن اجتمعت فيه خصال المروءة فهو في الناس شبه الملك.

ومن طريف ما يذكر فـي ترجمة محمـد بن عمرو بن عطاء الأكـبر أن الناس كـانوا يتحـدثون بالمدينة أن الخـلافة تفضي إليه لهيـئته ومروءته وعقله وكماله، ونَعَـتَهُ ابن سعد بقوله: «وكانت له هيئة ومروءة»[2].

فمن أحب أن يلبس التاج المفقود فعليه إقامة المروءة فإن حسن السـمت داخل فيـها وهي داخلة في حـسن السمت، والمروءة لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة والتفقد والمراعاة.

فـهي كمـا قال الماوردي ـ رحـمه الله ـ: «هي حِلْيَـةُ النُّفُوسِ، وزينة الهمم»[3].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦٨). (٢) «طبقات ابن سعد» (ص١٢٣).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٠٦).

وخيرها كما قال ابن سلام: «حد المروءة رعي مساعي البر، ورفع دواعي الضُّر، والطهارة من جميع الأدناس، والتخلُّص من عوارض الالتباس حتى لا يتعلق بحاملها لوم، ولا يلحق به ذم، وما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا؛ إلا وهو داخل تحت المروءة»[(١)].

وأول صلاح المروءة تفقد الرجل الأمور المستحقرة في نفسه ليجتنبها.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «الواجب على العاقل تفقُّدُ الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لا يَثْلِم[(٢)] مُروءتَهُ، فإنَّ المحقرات ضد المروءات تُؤدي الكامل في الحال بالرجوع القَهْقَرَى إلى مراتب العوام وأوباش[(٣)] الناس»[(٤)].

(١) «عين الأدب والسياسة» (ص٣٠).
(٢) يثلم: من الثلم وهو الخلق.
(٣) أوباش الناس: أخلاطهم وسفلهم.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٣٣).

وذو المروءة يكرم أينما حل وارتحل فهو من القلوب بالمحل، ومن الحكم السائرة التي تداولها الكرام كابرًا عن كابر: «ذو المروءة يكرم وإن كان معدمًا؛ كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرًا؛ كالكلب يهان وإن طَوِّق وحُلِّي بالذهب».

فدونك المروءة؛ عض عليها بالنواجذ ولو لم يبق في الفم ناب فإنك أنت الرابح ما من ذلك بد.



الفطنة

من رام السمت الحسن فعليه أن يكون فطنًا حذقًا فهمًا فقهًا[1].

وتعرف الفطنة بأنها: تَهَيُّؤ النفس لتصور ما يرد عليها من الغير وهي ضد الغباوة.

قال الراعي:

إذا فاطَنَتْنا في الحديث تَهَزْهَزَتْ

إليها قُلوبٌ، دونَهُنَّ الجوانحِ[2]

وهي موهبة من الله - سبحانه وتعالى - قال الأَبْشِيهي: «قد يخصُّ الله - تعالى - بِألطافِه الخفية من يشاء من عباده،

(١) قال الكفوي في «الكليات» (ص٦٧) - ضمن حديثه عن مراتب وصول العلم إلى النفس -: «الفهم: هو التعلق غالبًا بلفظ من مخاطبك، والفقه: هو العلم بغرض المخاطب من خطابه، والفطنة: هي التنبُّه للشيء الذي يُقصدُ معرفته».

(٢) انظر «لسان العرب» (١٣/ ٣٢٣)، و«المصباح المنير» (٢/ ١٣٣)، و«الصحاح» (٦/ ٧٧/ ٢١)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/ ٥١١).

فيفيض عليه من خزائن مواهبه رَزَانَة عقلٍ، وزيادة معرفة، تُخْرِجُهُ عن حَدِّ الاكتساب، ويصير بها راجحًا على ذوي التجارب والآداب».

وقد كان النبي ﷺ يحدث أصحابه بأحاديث تحتاج إلى الفطنة من بعضهم، وذلك منه ﷺ مراعاة للحال والمقام؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد يَوْمَ الجمعة، ورسول الله ﷺ يَخْطُبُ فقال: «صلِّ ركعتين»، ثم جاء الجمعة الثانية والنبي ﷺ يخطب فقال: «صلِّ ركعتين»، ثم جاء الجمعة الثالثة، فقال: «صلِّ ركعتين»، ثم قال: «تَصدَّقوا»، فتَصدَّقوا فأعطاه ثَوْبَيْنِ، ثُمَّ قال: «تَصدَّقُوا»، فطرح أحد ثَوْبَيْه، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تروا إلى هذا إنَّهُ دَخَلَ المَسْجِدَ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ، فرجوتُ أن تَفْطُنُوا له فتَتَصدَّقُوا عَلَيْه، فلَمْ تَفْعَلُوا فقُلْتُ: تَصدَّقُوا فتَصدَّقْتُم»[1].

(١) حسن: أخرجه النسائي (٥/ ٦٣) واللفظ له، وأبو داود (١٦٧٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٦٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: «كيف أغتسل من المحيض؟»، قال: «خُذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فَتَوَضَّئي ثلاثًا».

ثم إن النبي ﷺ استحيا فأعرض بوجهه أو قال: «تَوَضَّئي بها»، فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ»[1].

وكان بعض الصحابة يتفطنون للأمر الذي يريده النبي ﷺ من حديثه؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إنّ الله خيّر عبدًا بَيْنَ الدُّنْيا وبَيْنَ ما عِنْدَهُ، فاخْتارَ ذَلِكَ العَبْدُ ما عِنْدَ الله»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عَبْدٍ خُيِّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّرُ، وكان أبو بكر أعْلَمَنا.

(١) رواه البخاري (٣١٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣٢).

فقال رسول الله ﷺ: «إنّ أمَنَّ النّاسِ عليَّ في صُحْبَتِه ومالِه أبو بكرٍ، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خليلاً غيرَ ربّي لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ ومودَّتُهُ لا يبقينَّ في المسجدِ بابٌ إلاّ سُدَّ إلاّ بابَ أبي بكرٍ»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من الشَّجرِ شجرةً لا يَسْقُطُ ورقُها، وإنّها مثلُ المُسْلِمِ، فحدِّثوني ما هي؟».

فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنّها النخلة، فاستَحْيَيْتُ.

ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: «هيَ النَّخْلَةُ». قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت: هي النخلة، أحبُّ إليَّ من كذا وكذا»[2].

(١) رواه البخاري (٣٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) رواه البخاري (١٨٢٢) واللفظ له، ومسلم (١١٩٦).

وصفوة المقال أن الفطنة هي موهبة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويمكن اكتسابها بالعلم الشرعي وقراءة كتب السلف، والدربة على افتضاض أبكارها والتنبه للشيء المراد معرفته وفهمه، حتى تصير الفطنة سجية وطبعًا ما من ذلك بد.

على أن فيها من الفوائد والمسار ما لا يدركها إلا الواحد بعد الواحد فمنها أنَّها أمان من البلادة، والسلامة من المواقف الحرجة، وبزوغ نجم السمت الحسن بزوغًا لا خفاء فيه.



الوقار

من جمع بين الوقار وحسن السمت كان في الناس شبه الملك؛ فحسن السمت هيئة الملك، والوقار موكبه وحاشيته وجنوده التي تحيط به.

والوقار كما عرفه الجاحظ: «الوقار هو الإمساك عن فضول الكلام والعبث، وكثرة الإشارة والحركة فيما يُستغنى عن التحرك فيه، وقلَّة الغضب، والإصغاء عن الاستفهام، والتوقف عن الجواب، والتَّحفُّظ من التَّسرُّع، والمباكرة في جميع الأمور»[1].

فما عليك أن تفرد نفسك بهذه الخلَّة التي تدنيك من الإخوان وتجعل لك مهابة وقبولاً عند العامة، وتدرك ما لا يدركه غيرك من العزِّ والشَّرف والرئاسة.

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص٢٢).

والرسول ﷺ يُحبُّ لأمته التحلِّي بخلق السكينة والوقار حتَّى وهم في طريقهم إلى الصلاة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار[1]، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتمُّوا»[2].

وأخبر أنه ما من نبيٍّ بعثه الله إلاَّ ورعى الغنم؛ وذلك لما يؤول إليه من الرحمة والشفقة واكتساب السكينة والوقار؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الفخر والخيلاءُ في أصحاب الإبلِ، والسَّكينة والوقارُ في أهل الغنم»[3].

(١) قال النووي ـ رحمه الله ـ كما في «الفتح» (٢/ ١٣٩): «والفرق بين السكينة والوقار أنَّ السكينة هي التأني في الحركات واجتناب العبث، والوقار في الهيئة كغض البصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات».

(٢) رواه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢).

أمور تعين على اكتساب الوقار:

١ ـ العلم والعمل به:

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرَى ذلك في تخشعه، وهديه، ولسانِه، وبَصَرِه، وبرِّه»[1].

٢ ـ توقير الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

من رام الوقار فعليه بتوقير الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق توقيره.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣).

ومن لا يوقر الله في كتابه وسنة نبيه بالعلم بها والتأدب بأدبهما؛ فإن الله لا يُلقي له في قُلُوبِ النَّاسِ وَقَارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم.

(١) «شعب الإيمان» (٨/ ٤٢٧).

٣ ـ الحياء:

الوقار ثمرة من ثمار الحياء؛ فعن بشير بن كعب قال: «مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقارًا وإن من الحياء سكينة»[1].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «معنى كلام بُشير: أن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار بأن يوقر غيره، ويتوقر في نفسه، ومنه ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأمور التي لا تليق بذي المروءة»[2].

٤ ـ لزوم الصمت:

لزوم الصمت إلا من حقٍّ توضِّحُهُ، أو باطل تُدْحِضُهُ، أو شيءٍ يَعْنيك أَمْرُهُ.

(١) رواه البخاري (٦١١٧).

(٢) «الفتح» (١٠/٥٣٨) بتصرف.

قال بعض البلغاء: «الزم الصمت فإنه يُكْسِبُكَ صَفْوَ المحبة، ويُؤمِّنُكَ سُوْءَ المغبَّةِ[1] ويُلْبِسُكَ ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذارِ»[2].

تلك بعض الأمور التي تعين على اكتساب الوقار حريٌّ بالمرء أن يروض نفسه عليها حتى تصير له سجية وطبعًا.

وممن اجتمعن له تلك الصفات كلها الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ حتى قيل فيه:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُرَاجَعُ هَيْبَةً
والسائلونَ نواكِسُ الأذْقَانِ

نُورُ الوقَارِ وعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى
فَهُوَ المَهِيبُ ولَيْسَ ذَا سُلطَانِ



(١) المغبة: العاقبة.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٧٥).

لزوم الحلم

الحلم للسمت كالسور الذي يحفظه من سَوْرَةِ الغضب؛ فإن سَوْرَةَ الغضب متى حلت في المرء رحل عنه كل جميل.

ومن أطاع هواه عند هيجان الغضب كان كمن خرج من التنور لتوه فأي سمت بقي له بعد هذا.

فالحلم كما عرفه الجرجاني: «هو الطُّمأنينةُ عند سَوْرَةِ الغضب»[(١)].

وقيل هو التأني والسكون عند غضب أو مكروه مع قدرة، وقوة وصفح وعقل»[(٢)].

ومن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ (الحليم)، وهو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مقداراً فهو منتهٍ إليه»[(٣)].

---

(١) «التعريفات» (ص٩٢).

(٢) «المعجم الوسيط ـ مادة حلم» (١/ ١٩٤).

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير حرف الحاء مع اللام (١/ ٤٣٤).

والحلم من الخصال التي يحبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للأشج بن عبد القيس ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[(١)].

وقد بلغ رسول الله ﷺ في حلمه وعفوه الغاية؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثُمَّ أمر له بعطاء»[(٢)].

وقال الحافظ: «وهذا من روائع حلمه ﷺ وكماله، وحسن خلقه، وصفحه الجميل، وصبره على الأذى في

---

(١) رواه مسلم (١٨).

(٢) البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

النفس، والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام؛ وليتأسى به الدعاة إلى الله، والولاة بعده في حلمه، وخلقه الجميل من الصفح، والإغضاء، والصفو، والدفع بالتي هي أحسن»[1].

ومن هنا تعلم أن الحلم من أشرف الأخلاق فهو صفة من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأحب خصال الخير إليه لما فيه من حفظ السمت واكتساب الوقار واجتلاب الحمد؛ فمن كان حليمًا طبعًا ـ فليحمد الله ـ ومن لم يكن كذلك فليستعن بالله ثم ليأخذ برياضة نفسه وسياستها وحملها على الحلم، فإنما الحلم بالتحلم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلُّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه»[2].

(١) «فتح الباري» (١٠/٥٠٦).

(٢) حسن: أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/٧٦)، و«الخطيب في تاريخه» (٩/١٢٧)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢): حسن أو قريب من الحسن.

ومما يدل على أن الحلم بالتحلم؛ قول رسول الله ﷺ للأشج: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1].

وفي رواية قال الأشج: يا رسول الله، أنا تخلقت بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»[2].

ومن دلالة الواقع أن حليم العرب الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ قال: «لستُ بحَليمٍ ولكنني أتَحلَّمُ»[3][4].

(١) رواه مسلم (١٨).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٨٨).

(٣) قوله: «أتحلم»، أي: أنه تكلف الحلم وراض نفسه عليه حتى أصبح سجيةً له بل أصبح حليم العرب الذي يضرب به المثل في الحلم فيقال: «أحلم من الأحنف» قال أبو تمام يمدح المعتصم:

إقدامُ عمروٍ في سماحةِ حاتمٍ ** في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

(٤) «الإحياء» (٣/١٧٩).

ولله در القائل:

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله

وما الحلم إلا عادةٌ وتحلُّمُ[1]



(١) «أقوال مأثورة» (ص٤٤٠).

تجنب الغضب

الغضب يهدم الحلم وينافيه فمن قهر سَوْرَةَ غضبه بقوة حلمه فهو الشديد حقًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[1].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الوصية فأوصاه خير وصية بألا يغضب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردَّدها مرارًا، قال: «لا تغضب»[2].

فيا أخي عليك بوصية نبيك ﷺ فإن غبها لعظيم؛ فقد ضمن الله لمن أمسك عليه غضبه أن يخيره من الحور العين ما شاء؛ فعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنهما أنَّ رسول

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) رواه البخاري (٦١١٦).

الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذَه دعاه اللهُ - عزَّ وجلَّ - على رءوس الخلائق حتَّى يخيِّره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء»[١].

أخا الإسلام متى سَمَتْ بك نفسك إلى هذا الشرف العظيم فأمسك عليك غضبك ومتى عجزت فعليك بالعلاج وهو ما يأتي:

علاج الغضب:

١ - إذا وقع الغضب فعليك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

وعن سليمان بن صُرَد ﵁ قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٢١)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وابن الأثير في «جامع الأصول» (٨/٤٤٣)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٨).

مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[١][٢].

٢ - تغيير الحالة التي عليها الغضبان بالجلوس أو الخروج؛ فإن الغضب يزول بتغيير الأحوال، والتنقل من حال إلى حال؛ فعن أبي ذر ﵁ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[٣].

(١) قال ابن القيم - رحمه الله - في «الزاد» (٢/٤٦٢): «ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يُرى عيانًا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يُرى، وهو شيطان الجن، جعل الله - سبحانه وتعالى - المخرج من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والصفح، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شر شيطان الجن بالاستعاذة منه وما أحسن ما قاله القائل:

فما هو إلا الاستعاذة ضارعًا ... أو الدفع بالحسنى هما خيرُ مطلوبِ

فهذا دواء الداء من شر ما يُرى ... وذاك دواء الداء من شر محجوبِ

(٢) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥١١٤).

٣ ـ السكوت؛ وذلك أن اللسان أداة مجردة يتغالب عليه الغضب؛ فالسكوت في هذه الحالة أحمد عاقبة والسلامة لا يعدلها شيء، وإلى ذلك أرشد النبي ﷺ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا، ويسِّروا ولا تُعَسِّروا، وإذا غضب أحدكم فليَسْكُتْ»[1].

٤ ـ ينبغي استحضار ما ورد في فضل كظم الغيظ من الثواب، وما ورد في عاقبة الغضب من الخذلان في العاجل والآجل؛ فعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهُوَ قادرٌ على أن ينفذَهُ دَعَاهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على رُءوسِ الخلائق حتَّى يخيِّرهُ من الحور العين، يزوجه منها ما شاء»[2].

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٥): صحيح لغيره.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٢١)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٨).

تلك بعض الأمور التي تعينك على كظم غيظك والتغلب على سَوْرَةِ غضبك، وأنت خليق أن تحبب لنفسك الحلم حتَّى تلزمه وتألفه ويكون هو لذَّتك وسلوتك فإنه ـ لعمري ـ نِعْم الحلية لك ومن أجل نَفَاسَتِه تَسَمَّى الله بِه.

تجنب الحديث مع أخيك إذا غضب:

أخي أزيدك فائدة: يجب عليك أن تسكتَ إذا غَضِبَ أخوك حتَّى تهدأ سورة الغضب لديه وتبرد المشاعر وتسكنَ اضطرابات النفس، ويتأكد ذلك منك إذا اشتد به الغضب، فإنك متى فعلت ذلك اكتسبت فضيلة الصبر والحمد معًا.

وإن واجهتَهُ وهو بهذه الحالة كنت كعاقل واجه مجنونًا، ولا تأمن من إظهار الجُرأة عليك، ومن درر العلامة ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ قوله: «متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا، ولا أن تؤاخذه به، فإن حاله حال السكران، لا يدرك ما يجري، بل اصبر لفورته، ولا تعول عليها، فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر.

ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك، بل انظر إليه بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج في لعب الطبع به واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى، وعرف لك فضل الصبر.

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به، وهذه الحالة ينبغي أن يتحملها الولد عند غضب الوالد، والزوجة عند غضب الزوج، فتتركه يشتفي بما يقول، ولا تعول على ذلك، فسيعود نادمًا معتذرًا، ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة، وجازى في الإفاقة على ما فعل في حقه وقت السكر.

وأكثر الناس على غير هذه الطريق، ومتى رأوا غضبانًا قابلوه بما يقول ويعمل على مقتضى الحكمة، هذا، بل الحكمة ما ذكرته، وما يعقلها إلا العالمون»[1].

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٢٢١).

التواضع

التواضع للسمت الحسن كالشمس للدنيا والماء للحياة، فهو زينة العيون والقلوب وحيلة لا تبلى محاسنها، فلا تزداد مع الأيام إلا حسنًا وجمالاً.

ويعرف التواضع بأنه بذل الاحترام والعطف والمجاملة لمن يستحق ذلك[1]، وهو بمنزلة بين منزلتين: الكبر والذل[2].

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن التواضع كسائر الأخلاق، له طرفان ووسط فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخسسًا ومذلة، والوسط يسمى تواضعًا ـ وهو المحمود ـ وهو أن يتواضع من غير مذلة»[3].

(١) انظر «رسائل الإصلاح» ١٠/ ١٢٧).
(٢) الذُلُّ: هو الدَّناءَةُ والخِسَّةُ وبَذْلُ النَّفْسِ أَوْ ابتذَالُهَا في نيل مآربها وشهواتها، كتواضع السَّفَلِ في نيل مآربهم وتواضع كل مصلحة لمن يرجُو نيل مصلحته منه، فهذا كله ضِعَةٌ لا تواضع.
(٣) رواه مسلم (٤٦٦٠).

والتواضع سبيل إلى الرفعة في الدنيا والآخرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زاد اللهُ عبداً بعفوٍ إلاَّ عِزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ»[١].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: في شرحه لهذا الحديث: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه»؛ فيه وجهان:

أحدهما ـ يرفعه الله في الدنيا، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلةً ويرفعه الله عند الناس، ويُجِلُّ مكانه.

والثاني ـ أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه بتواضعه في الدنيا».

وقال ابن الحاج ـ رحمه الله ـ: «من أراد الرِّفعة فليتواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فإن العِزَّة لا تقع إلا بقدر النُّزول، ألا ترى أن الماء لَّما نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها، فكأن سائلاً سأله: ما صعد بك هنا ـ أعني في رأس الشجرة ـ وأنت تحت أصلها؟!

(١) «شرح النووي على مسلم» (٦/ ١٤٢).

فكأن لسان حاله يقول: مَنْ تواضع لله رَفَعَهُ»[١].

ومن جميل ما قيل في التواضع:

دَنَوْت تَواضُعاً، وَعَلَوْت مَجْداً
فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وارْتِفَاعُ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أنْ تُسَامَى
وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا والشُّعَاعُ

قلت: إذا كان الله قد رفعك بتواضعك فمن سيضعك وقد تقدم أن التواضع هو الاحترام والعطف والمجاملة لمن يستحق فاحترس ممَّن لا يستحق وخُذْ نفسك بذلكَ مُمْسيًا ومصبحًا.

قال ابن المقفع ـ رحمه الله ـ: «إن استطعت أنْ تضع نفسك دونَ غايتك في كل مجلسٍ ومُقامٍ ورأيٍ وفعلٍ، فافعل، فإنَّ رفع الناس إياك فَوْقَ المنزلة التي تَحُط إليها

(١) «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٢٢).

نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعظِّم، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزيْن هو الجمال»[1].

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ[2] لِنَاظِرٍ
عَلَى صَفَحَاتِ الماءِ، وهُوَ رَفِيعُ
ولا تَكُ كالدُّخانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ
إلى طَبَقاتِ الجَوِّ، وهُوَ وَضِيعُ



(١) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (١١٨، ١١٩).
(٢) لاح: بدا وظهر.

لزوم الآداب

من رام السمت الحسن فعليه لزوم الآداب مع الخلق ومعاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبةٍ أدبٌ، والمراتب فيها أدبٌ خاصٌ فمع الوالدين: أدب خاص للأب، منهما أدبٌ هو أخص به، ومع العالم أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله، ومع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنْسِهِ، ومع الضيف أدب غير أدبه، ولكل حالٍ أدبٌ، فللأكل آداب، وللشراب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللتَّبوُّل آداب، وللكلام آداب وللسُّكون والاستماع آداب.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحِهِ، وقِلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، وما استُجلب حرمانها بمثل قِلَّةِ الأدب، فانظر إلى الأدب مع

الوالدين، كيف نجيَّ صاحبه من حبسِ الغار حين أطبقت عليهم الصَّخْرَةُ؟

والإخلال به مع الأُم ـ تأويلاً وإقبالاً ـ على الصلاة كيف امتُحِنَ صاحِبُهُ بِهَدْمِ صومَعَتِه وضرب الناس له ورَمْيِهِ بالفاحشة»[1].

كيف نكتسب الآداب:

حسن الآداب هو مقام الاقتداء برسول الله ﷺ فهو القدوة في كل خير؛ فقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه أشتات الفضائل والآداب، وأبعده عن كل ما يعاب، وأمرنا بالاتِّساء به في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٠٦، ٤٠٨) بتصرف، انظر «نضرة النعيم» (٢/١٤٩).

الفهرس

الفهرس

الموضوع | صفحة

الموضــوع	صفحة

الموضــوع	صفحة

الموضوع — صفحة

باسم الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد

من وجد خطأ أو عليه ملاحظات
على الكتاب
فالدين النصيحة
والقلب مفتوح - بإذن الله -
لقبول النصيحة.
والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

محبكم فيصل الحاشدي

١٥/٧/١٤٣٦هـ ٧٧١٢٩٩٩٤١٠